امبراطورية جستنيان

الدكتورة
إسمت غنيم
جامعة الإسكندرية

١٩٨٢



دار المعارف

امبراطورية جستنيان

امبراطورية جستنيان

إسمت غنيم
جامعة الإسكندرية

١٩٨٢



دار المعارف

المحتويات

المقدمة

بسم الله الرحمـــن الرحيم

لعل أنسب اسم يطلق على الدولة الرومانيـــة الشرقية فى الفترة الزمنيـــة الممتدة من عـــام ٥٢٧ – ٥٦٥ م. هو «امبراطوريـــة جستنيان» لان هـــذه الامبراطورية لم تكن هى نفسها الامبراطورية الرومانية القديمة ، كما انها لم تكن كذلك الامبراطورية البيزنطية بحدودها التى عرفت بها خـلال الشطر الاكبر من العصور الوسطى ، بل انه لم تمضى عـلى وفاة جستنيان اكثر من ثلاث سنوات حتى تغيرت حدود هذه الامبراطورية بالفتح اللومباردى لشمال ايطاليا .

فهذه الامبراطورية امتدت بفضل جهود جستنيان واستمرت قائمـة فى عهده ، وبدأت حدودها تتغير بعد وفاته .

والواقع ان جستنيان يحتل مكانة خاصـــة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فهو الامبراطور الرومانى الشرقى ، ذو الافكـــار والميول اللاتينية الغربية ، ومن ثم فقـد اختلف المؤرخون المعاصرون والمتأخـرون زمنيا ، فى تقييم هذا الامبراطور بأفكاره ومبادئه السياسية وما بذله فى سبيل الامبراطورية من جهود ، أنصفه فريق منهم وهم قليلون ، واتهمه الفريق الآخر وهم الاغلبية ، رفعه بعضهـــم الى القمـــة ، وهوى بـــه البعض منهم الى الحضيض .

وفى هذا البحث نحاول ان نصل الى الحقيقـة التاريخية المجردة عن هذا الامبراطور والانجازات التى حققها للامبراطورية خلال حكمه .

ويمكن القول ان عصر امبراطور عظيم مثل جستنيـــان ، استحوذ من

التاريخ البيزنطى على فترة امتدت لأكثر من ثمانية وثلاثين عاما (١) ، انجز خلالها العديد من الاعمال والمشروعات فى الداخل والخارج ، يصح ان يؤرخ له فى مجلد وليس فى بحث صغير مثل هذا البحث ، والجزء الثانى من كتاب المؤرخ الانجليزى بيورى Bury وعنوانه :

History of the later Roman Empire

يقع فى ٤٩٤ صفحة ، خصصها كلها للكلام عن عصر جستنيان وحده وهناك كتاب للمؤرخ باركر Barker عن عصر جستنيان أيضا وعنوانه :

Just inian and the later Roman Empire.

ويقع هو الآخر فى ٣١٣ صفحة ، وغيرهم ممن تناولوا عصر هذا الامبراطور بتفصيلات وافية ويستطيع أى باحث فى عصر جستنيان ان يرجع الى كتبهم للاستفادة منها .

اما بالنسبة لبحثى هذا ، فأننى لست بصدد معالجة عصر جستنيان فى حد ذاته بقدر ما أنا حريصة على ان أوضح الحقائق التاريخية للرد على النقد الذى وجه إليه من جانب الغالبية العظمى من المؤرخين . أى أننى اتناول الخطوط العريضة فى أعمال هذا الامبراطور ، دون الدخول فى التفاصيل الدقيقة ، بشكل يخدم الهدف الذى اسعى إليه .

---

(١) حكم جستنيان منذ ارتقائه العرش وحتى وفاته مدة ثمانية وثلاثين عاما وسبعة شهور ، وثلاثة عشر يوما ، راجع :

Gilbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1976, Vol 4, p. 151.

ويرجع الفضل فى تسجيل الأحداث التاريخية الخاصة بعصر جستنيان إلى اثنين من المؤرخين المعاصرين ، هما بروكوبيوس Procopius وأجاثياس Agathias . وينتمى بروكوبيوس فى الأصل إلى مدينة قيصريه فى فلسطين ، وقد رافق القائد بليزاريوس أثناء حملاته العسكرية ، وكان شاهد عيان لمعظم الأحداث التى رواها فى مؤلفه الذى يعرف باسم «التاريخ السرى» Historia Arcana ، ويعطى فيه تفصيلا لحروب جستنيان ضد الفرس ، الوانـدال ، القوط ، ومختلف الأحداث حتى سنة ٥٥٤ م . كما ضمنه كذلك قذفا على جستنيان وثيودورا وبليزاريوس وزوجته . ولذلك لم ينشر هذا الكتاب أثناء حياته . ويقول المؤرخ رانسيمان ان «بروكوبيوس وإن كان كتابه المعنون « التاريخ السرى » انما هو مجموعة شتى من الخوض فى السير و الاعراض إلا أنه ينبغى أن يوضع بسبب ما دونه عن حروب الأمبراطور ، فى مصاف عظماء المؤرخين فى جميع العصور ، فقد كانت لغته قوية ، وحكمه واضحا ، ووصفه للاشياء حيا» (١) .

ولبروكوبيوس كتاب آخر عن المبانى والحصون يسمى De Aedificiis الغالب أنه كتبه فى الفترة من ٥٥٣ – ٥٥٥ م . وقد أثنى فيه على

---

(1) Runciman, S. : Byzantine Civilisation, Seventh impression, 1975, p. 243.
D[illegible]ger, F. : Byzantine Literature, C.M.H. vol. IV, part II, ed. Hussey, [illegible] – 228

الإمبراطورر جستنيان لانشائه العديد من المبانى اللازمة لكل الأغراض من الكنائس حتى القناطر والتحصينات (١) .

أما معاصرة المتأخر اجاثياس الذى ولد فى عام ٥٣٦م وتوفى فى عام ٥٨٢ م ، فهو كذلك مؤرخ مرموق ، ولكنه كان على نقيض بروكوبيوس فقد كان شاعرا ، وكثيراً ما كان استعماله للاسلوب البلاغى يطغى على كتابته ، ويغلف معانيه بغشاوة كالضباب أحيانا (٢) .

وتاريخه الذى يعرف باسم Historiarum دون فيه الأحداث التى وقعت فى الفترة الزمنية الممتدة من عام ٥٥٢ — ٥٥٨ م ، ثم أكمل الأحداث من عام ٥٥٨ — ٥٨٢ م . وقد نشر مؤلفه هذا فى مجموعة بون البيزنطية Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. التى نشرت فى عام ١٨٢٨ م فى ألمانيا .

كذلك كانت الاستفادة كبيرة من الطبعة الجديدة للجزء الرابع من مجموعة كمبردج للعصور الوسطى Cambridge Medieval History التى أشرفت على نشره الأستاذة جوان هسى Joan Hussey أستاذة تاريخ العصور الوسطى بجامعة لندن ، وظهرت هذه الطبعة الجديدة فى عامى ١٩٦٦ — ١٩٦٧ . وينقسم هذا الجزء إلى مجلدين ، الاول خاص بالتاريخ السياسى ، والثانى خاص بالتاريخ الحضارى للدولة البيزنطية .

———

(1) Dolger : op. cit,. p. 228.
Runciman : op. cit., p. 243.

(2) Dolger : op. cit., p. 228.

هذا بالاضافــة لمؤلفات فازيلييف Vasiliev ، واستروجورسكى Ostrogorsky ، وجيبــون Gibbon ، وبيــورى Bury ورانسيمان Runciman ، وغيرهــم من المؤرخــين الذين تناولوا عصر جستنيان سواء فى كتب مستقلــة أو فى فصــول داخل كتب تبحث فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية بصفة عامـــة .

ولعلنى بهذا البحث أكون قد أضفت شيئا جديــدا الى المكتبــة العربيــة يمكن ان يقدم الفائدة العلمية للباحثين فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية .

والله الموفـــق ،

اسمت غنيم

لوران

٩ مارس ١٩٨٢ م

الفصل الأول

المؤثرات المحيطة بجستنيان

- آراء بعض المؤرخين فى جستنيان .

أهم مستشارى ومعاونى الامبراطور :

ثيودورا

نارسيس

بليزاريوس

تريبونيان

يوحنا القبدوقى

- المشاكل الداخلية التى واجهته فى بداية عهده .

يقول المؤرخ فيشرعن جستنيان : « إن امبراطوراً طفحت دخيلته بالغيرة وامتلأ رأسه بالغرور ، واتصفت أخلاقه بالتردد وهو مع ذلك لايتهيب الدخول فى مشروع مهما عظم ولايستصغر عملامن أعمال الإدارة مهما صغر ، ولايستهين طيرة مهما هانت . ولايعتبر أمراً بعيد المنال مهما بعد ، لا يستطيع أن يثير الإعجاب فى نفس أحد ».(١)

ولم يكن هذا هو النقدالوحيد الذى تعرض له جستنيان من جانب المؤرخين فقد تعرض هذا الامبراطور للكثير من النقد . وخاصة فيما يتعلق بأفكاره السياسية الخاصة باستعادة السيادة الرومانية على الأقاليم الغربية التى استولى عليها البرابرة الجرمان واعتبروا سياسته فى هذا الميدان وهما عسير التحقيق . باهظ التكاليف . وأنها كانت ترفاًوضرراً ،وإن ضررها كان أكثر من نفعها ، وأن جهوده العسكرية فى الغرب كانت من أجل تحقيق أطماعه الشخصية ، وأنه رغم أن حروبه فى الغرب قد كلفت الإمبراطورية الكثير من المال والرجال ، إلا أن نتائجها لم تكن دائمة وأن فتوحاته هذه قد انهارت بعد وفاته.(٢)

وقبل أن نناقش هذه الآراء . ونوضح مدى صحتها ، يجب أن نستعرض

---

(١) فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر ، الجزء الأول ، ص ٥٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال المراجع التالية :

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, (324 - 1453) Wisconsin press, U.S.A. 1973, vol I, pp. 141 - 142.

Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, paris, 1928, C p. 8.

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٥٢ — ٥٣ .

عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ص ٦٠ .

العرينى : الدولة البيزنطية ، (٣٢٣ — ١٠٨١) القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٩ .

نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ٧٦ .

عقض هذا الإمبراطور ، وجهوده فى الداخل والخارج والانجازات التى حققها للامبراطورية ، حتى يكون حكمنا صحيحا مبنيا على الحقائق التاريخية الواضحة .

يرجع الفضل فى ظهور جستنيان على مسرح الأحداث السياسية إلى عمه جستين الذى تختلف الآراء فيما يتعلق بأصله ، فالبعض ينسبه إلى الأصل الصقلبي والبعض يقول أنه من أصل رومانى أو ألبانى ، على أن الأرجح أن أصله يرجع إلى جماعة من المتبربرين الذين كانوا يقطنون رقعة موحشة منعزله اطلق عليها تباعا اسم داردانيا ثم داكيا ثم بلغاريا ، وقد بقيت اللغة اللاتينية فى هذا الإقليم لغة التخاطب بين الناس دون سائر أقاليم البلقان الأخرى. (١)

وكان جستين وضيع الأصل ، وكان يعمل فى فلاحة الارض فى بلدة ، ثم فكر فى ان يجرب حظه فى العاصمة القسطنطينية ، فهاجر اليها مع بعض اصدقائه ، والتحق بالخدمة فى الجيش حيث اظهر كفاءته كجندى باسل ، فألحق بالحرس الإمبراطورى ، وظل يتقدم حتى أصبح قومس Comes إحدى فرق الحرس، وكانت كل مؤهلات جستين محصورة فى كونه جندياً باسلا وجاهلا ماعداها من صفات، فقد كان أميا لايقرأ ولا يكتب ، متطفلا

---

(1) Barker : Justinian and the later Roman Empire, london, 1966, pp. 64 - 65.

Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, london, 1976, 4, pp. 146 - 147.

فيشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، حـ ١ ، ص ٤٦ .

اسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودياناتهم وثقافتهم ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥ ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢). القومس هو الرائد الذى يقود الفرقة العسكرية المكونة من ثلاثمائة إلى أربعمائة جندى أنظر Runciman; Byzantine civilisation p. 139.

على السياسة جاهلا علم اللاهوت ، كما كان مسناً حين وقع عليه الاختيار بتدبير لايزال غامضاً ، ليتولى العرش بعد وفاة الأمبراطور أنستاسيوس فى عام ٥١٨م.

وقد عاش جستين حتى صار أمبراطوراً دون أن ينجب ولداً ، لذا فقد تبنى إبن أخ له من نفس موطنه ، وأطلق عليه إسم رومانى هو جوستنيانوس Justinianus [illegible] فى حداثته إلى القسطنطينية، وعنى بتثقيفه وتهذيبه وكانت اللغة الأم التى يتحدث بها هى اللاتينية ، لكنه كان يتكلم اليونانية بلهجة ركيكة ومنذ تولى جستين العرش كان جستنيان قد أنهى دراسته وأصبح على دراية كبيرة بالسياسة والشئون اللازمة لمن يعمل فى الحكم ، وصار المساعد الأيمن لعمه جستين ، وفى عام ٥٢٥ أضفى عليه لقب قيصر Caesar وفى إبريل ٥٢٧ منحه لقب [illegible] وأعلنه خليفته على العرش البيزنطى(١).

وبعد أن توفى جستين فى أول أغسطس ٥٢٧ . تولى جستنيان الحكم ، وكان فى الخمسة والأربعين من عمره ، صهرته الخبرة ، وحنكته التجارب ، وكان يفتح بابه لكل الناس ، وينصت إلى شكاواهم ، وكان مهذباً بشوشاً ، قادراً على التحكم فى انفعالاته . ومما عرف عنه أنه كان عزوفاً عن الطعام ، وكثيراً ما كان يقضى يومين دون أن يتناول طعاماً ، وفى فترات الصوم الرسمية كان يقنع بالماء والخضروات ، ولم يكن تحكمه فى نومه أقل صرامة من تحكمه فى طعامه ، فقد كان لا يستريح إلا ساعة واحدة وكان أشد مايدهش أمناء القصر أن يرونه سائراً فى أرجائه وسط الليل أو مكباً على دراسة التقارير التى يرفعها

(1) Barker : Justinian and the later Roman Empire, p. 66.
Bréhier : Vie et mort de Byzance, paris, 1948, p. 20-21.
Gibbon : The decline and Fall of the Roman Empire, Vol. 4, pp. 146-148.

اليه الموظفون بالدولة حتى يلوح ضوء النهار ، وكان من نتيجة ذلك أن لقبوه « بالإمبراطور الساهر » (١).

وكان جستنيان شديد الإعجاب بمواهبه ومؤهلاته، شديد الثقة فى عظمته، ولكنه رغم هذا كان يحترم آراء مساعديه ومستشاريه ، وأهمهم زوجته الأمبراطورة ثيودورا ، والقائدان اللامعان بليزاريوس ونارسيس اللذان حقق جستنيان عن طريقهما الكثير من الانتصارات والفتوحات للامبراطورية وتريبونيان الساعد الأيمن للامبراطور فى مجال التشريع ويوحنا القبدوقى الذى كان مسئولا عن الشئون الإدارية والمالية .

فيما يتعلق بثيودورا فهى إبنة لأحد القبارصة ، وكان يعمل مروضاً للدببة بالسيرك وقد إكتسب شهرة كبيرة فى هذا الميدان حتى أطلق عليه إسم (سيد الدببة) The master of the bear وقد ولدت ثيودورا بالقسطنطينية فى عام ٥٠٠م وكانت الإبنة الوسطى لوالديها ، وكانت أختها الكبرى تدعى كوميتو Comito والأخت الصغرى تدعى أنسطاسيا Anastasia ولم يمتد الأجل بوالدهن طويلا فتوفى تاركاً بناته الثلاثه وأمهن دون مورد رزق . وكانت كبراهن لا تتعدى سنها وقتذاك السابعة من العمر . ورغم حداثة سنهن إلا أن أمهن دفعتهن للعمل على المسرح لكسب العيش ، وقد نالت الشقيقات الثلاث تعاطف شعب القسطنطينية بعد أن أدخلن السرور إلى قلبه.

ولم تكن ثيودورا تتقن الرقص أو الغناء أو العزف على الناى مثل شقيقتاها

(1) Procopius : Historia Arcana, ed. Haury, leipzig, 1906. pp. 80 - 81.
Barker : op. cit., p. 67.
Gibbion : op. cit., pp. 365-366.

أنظر كذلك الصورة رقم (١) للأمبراطور جستنيان .

ولكنها برعت فى فن آخر يعرف حـــاليا باسم البـانتوميم The Pantomime وهوفن التمثيل الصامت ، فكانت تقوم بتأدية حركات معينة دون أن تنطق بكلمة واحدة واختارت لنفسها تمثيل دور المهرج (البلياتشو) . وكلما انتفخت أوداج الممثلة الصغيرة وشكت فى حركات مضحكة من الضربات التى كانت تكال لها ، ضج مسرح القسطنطينية بالضحك ودوى بالتصفيق والاستحسان . وكان جمال ثيودورا مصدر اطراء وثناء دائماً ، وكانت قسمات وجهها رقيقة ومتناسقة ، كما كانت بشرتها رغم شحوبها نوعاً ما ، مشربه بلون طبيعي وكان أهم ما يميز وجهها عيناها الممتلئتان بالحيوية ، واللتان تعبران على الفور عما يدور فى نفسها من احساس(١) .

وهكذا عرف عن ثيودورا الجمال والرشاقة والذكاء وسرعة الخاطر ، وقد دفعها الفقر والجو الملىء بالإنحلال والفساد الذى عاشت فيه ، إلى الإنحراف ، ويسرد المؤرخ المعاصر بروكوبيوس العديد من القصص والحكايات عن صولات وجولات ثيودورا فى هذا الميدان ، ويقول انها كانت مصدر التسلية بالقسطنطينية كما كانت مصدر العار لها كذلك ، وأنه كان يتنحى عن طريقها ويتفادى لقاءها كل من يرغب فى تجنب الفضيحة أو الإغراء(٢) .

على أن ثيودورا لم تلبث ان هجرت العاصمة البيزنطية ، وصاحبت Ecebolis حاكم ولاية شمال افريقية إلى مقر عمله ، حيث أمضت هناك بضع سنوات ، ثم عادت من جديد إلى العاصمة عن طريق مصر ثم سورية وآسيا الصغرى ، ويقول بروكوبيوس ان كل مدينة مرت بها فى طريق

---

(١) أنظر الصورة رقم (٢) للامبراطورة ثيودورا .

(2) Procopins : Historia Arcana, ed. Haury, pp. 60 - 61.

عودتها قد أعجبت واستمتعت بالقبرصية الجميلة ذات المواهب المتعددة(١). المهم انها ما أن وصلت للعاصمة حتى غيرت من مسار حياتها ، فقد ابتعدت عن المسرح واعتزلت الناس وأمضت وقتا فى غزل الصوف ، وأبدت اهتماماً كبيراً بالمسائل الدينية واتصفت بالتعقل والاتزان .

ولعل المرء يتساءل عن السبب فى هذا التغيير الشامل الذى طرأ على حياة ثيودورا . ان بروكوبيوس يدعى بأن السبب فى ذلك يرجع إلى أنها فى طريق عودتها لبيزنطة رأت فيما يرى النائم انها ستكون زوجة الملك قوى . ووعياً منها بما ينتظرها من عظمة وجلال عادت من آسيا الصغرى إلى القسطنطينية واصطنعت بما لها من قدرة فائقة على التمثيل هذه الشخصية الأكثر حشمة ووقاراً .

وإن كنت أرجح أن تكون ثيودورا قد تأثرت واقتنعت بالتعاليم الدينية بعد اختلاطها بالرهبان ورجال الدين الذين صادفتهم فى الولايات الشرقية من الامبراطورية أثناء عودتها إلى القسطنطينية وفى اعتناقها لمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، ودفاعها عن هذا المذهب وهو المذهب الذى ساد فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية ما يؤيد ذلك .

وقد رآها جستنيان وهى على هذه الصورة فبهره جمالها ، ولم يكن جستنيان قد وصل للعرش الأمبراطورى بعد ، وقد أراد الزواج بها ، ولكن حالت عقبات دون اتمام هذا الزواج . ذلك أن القوانين الرومانية كانت تحرم صراحة زواج عضو مجلس السناتو (الشيوخ) من أية إمرأة ذات أصل وضيع . كما أن الإمبراطورة Euphemia زوجة عمة الإمبراطور

---

(1) Procopins : op. cit., pp. 27 - 28.

جستين ، وهى من أصل ريفى ومتمسكة بالتقاليد الصارمة ، رفضت تماماً أن يتزوج ابن أخ زوجها ووريثه فى العرش الإمبراطورى من هذه المرأة ذات التاريخ الحافل بالرذيلة ، كما أن والدة جستنيان وتدعى Vigilantia عارضت هى الأخرى هذا الزواج بشدة .

لكن جستنيان لم ييأس وقد ساعده القدر على ذلك حين توفيت الإمبراطورة Euphemia فزالت بذلك أكبر العقبات أمام زواجه من ثيودورا ، فسن جستنيان قانوناً باسم الإمبراطور جستين الثانى أبطل به القانون القديم ، ونص هذا القانون الجديد على « فتح باب التوبة الصادقة أمام النساء التعيسات اللاتى دنسن أنفسهن على المسرح ، وأجيز لهن عقد القران المشروع على أبرز الشخصيات الرومانية » .

وهكذا أتيح لجستنيان عن طريق هذا القانون الجديـــــد الزواج من ثيودورا وتم ذلك فى عام ٥٢٢م .

ومنذ تزوجها جستنيان وحتى وفاتها فى عام ٥٤٨م . وهى تمارس نفوذاً كبيراً على زوجها ، وحين آل العرش إلى جستنيان فى عام ٥٢٧م بعد وفاة جستين الثانى ، توجها بطريرك القسطنطينية كإمبراطورة مثلما توج جستنيان إمبراطوراً ، وقد أجلسها جستنيان على العرش شريكاً متكافئاً مستقلا فى السيادة على الإمبراطورية ، وفرض على حكام الولايات والموظفين الإداريين تأدية يمين الولاء لجستنيان وثيودورا معاً على النحو التالى : « إمبراطورينا المقدسين الورعين جستنيان وثيودورا شريكته فى العرش » .

وفى كثير من الأحيان كانت تستقبل السفراء الأجانب وتنعم عليهم

بالهدايا « كما لو كانت تحكم الإمبراطورية الرومانية » على حد تعبير بروكوبيوس »(١) .

وكان لثيودورا مصادر مالية عديدة منها ضياع كثيرة فى آسيا الصغرى يديرها مشرف كبير يعرف باسم : Curator divinae domus serenissimae Augustae وكان جستنيان حريصاً على أن يزيد من أملاك ثيودورا فمنحها هبات ضخمة بمناسبة زواجهما وكان ضمن هذه الهبات القصر الذى كان يقيم فيه جستنيان قبل اعتلائه العرش والمعروف بقصر هورميسداس Hormisdas .

وإن كان بروكوبيوس متبعاً نفس الأسلوب الذى سار عليه فى مهاجمة ثيودورا يقول بأنها كان لها اهتماماً خاصاً بكل ما له صلة بالإتجار فى اعراض النساء ، الا ان الثابت انها قومت الكثير من الاخطاء ، ويرجع إليها الفضل فى إصدار القانون الصارم الذى يحظر الإتجار فى الفتيات الصغيرات هذا الأمر الذى كان يعد من أكثر الأعمال رواجاً آنذاك . ذلك أن الوكلاء كانوا يجوبون ولايات الإمبراطورية يجمعون الفتيات الصغيرات تحت سن العاشرة ، بعد أن يغروهن بالحياة الرغدة والملابس الأنيقة ، ويدفعون إلى ذويهن القليل من المال تعويضاً لهم عن بناتهم ، وبعد أن يصلوا بهن إلى العاصمة يجبرونهن على الإشتغال فى بيوت الدعارة . وقد بذلت ثيودورا جهدها من أجل العمل على إنقاذ أولئك الفتيات من أيدى هؤلاء التجار ، بعد أن دفعت إليهم الكثير من مالها الخاص .

---

(1) Procopius : Historia Arcana, pp. 24, 30.
Bury : History of the later Roman Empire, vol 2, p. 30.
Barker : op. cit, pp. 69 - 70.
Gibbon : the Decline and Fall of the Roman Empire, vol 4, pp. 153 - 157.

أما الومسات التائبات ، فقد خصصت لهن ثيودورا قصراً على الشاطىء الآسيوى للبوسفور غير بعيد عن ساحل البحر الأسود ليكون مأوى يكفل لهن الحياة الشريفة وعرف هذا القصر باسم Metanoia or Repentance وبحاول بروكوبيوس أن يبخس من قدر هذا العمل النبيل الذى قامت به ثيودورا فيدعى أنها قد نزلت إلى سوق القسطنطينية مع مجموعة كبيرة من الحرس وأمرتهم بجمع النساء الساقطات ، فجمعوا حوالى خمسمائة منهن وأرسلتهن إلى قصر Metanoia وأجبرتهن على تغيير طريق حياتهن بالقوة . وقد ألقت بعضهن بأنفسهن من النوافذ المرتفعة فلقين حتفهن ، ولهذا فهو يحملها مسئولية موتهن(١) .

وهكذا يتضح التناقض فى أقوال بروكوبيوس ، ففى الوقت الذى يتهمها فيه بالإتجار فى أعراض النساء ، يوضح انها تحاول ابعاد النساء الساقطات بالقوة عن ممارسة هذه المهنة وارسالهن إلى قصر التائبات .

والواقع أننى اتفق مع المؤرخ فازيلييف Vasiliev الذى يؤكد أن بروكوبيوس كان حريصاً على أن يسىء إلى سمعة جستنيان وثيودورا ولهذا فهو راو مغرض يجب أن نتقبل روايته بشىء من الحذر(٢) .

وقد أتاح لها الدخل الضخم الخاص بها ، اعداد جهاز سرى يخضع لسلطانها ، وبلغ بها الأمر أحياناً انها كانت تحبط أعمال وكلاء الإمبراطور ، ثم لا يفوتها بعد ذلك أن تسترضى جستنيان . وكان ذووا الحظوة لديها هم وحدهم الذين تولوا مناصب ولاة المدن وقادة الجند والبطاركة والبابوات ،

---

(1) Procopuis, Historia Arcana, P 17.
Bury : History of the later Roman Empire, pp. 21 - 32.
(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol, 1, p. 132.

أما أعداؤها فكانوا يعزلون أو يقضى عليهم ، ويقول المؤرخ شارل ديل إن ثيودورا اتصفت بالتطرف الشديد فى علاقاتها فكانت لا تعرف الحد الوسط ، فهى إما شديدة العداء أو شديدة الود ،(١) أما المؤرخ موص فيقول إن إلزامها لرجال البلاط السجود أمامها وجعل ذلك من المراسم الإمبراطورية ، وفى الوقاحة المتعمدة التى كانت توجهها إليهم ، تعويضاً وانتقاماً لنفسها من المعاملة المهينة التى لقيتها من أبناء طبقتهم(٢) .

وقد برز نفوذها الهائل فى المسائل الدينية ، وقد سبق أن أوضحت أنها كانت تميل إلى الكنيسة المونوفيزيتية الآخذة بمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وكان جستنيان يدين بمذهب الطبيعتين ، ويوم تعرضت الكنيسة المونوفيزيتية للإضطهاد على يده ، هرع إلى ثيودورا رجال الدين والرهبان من أصحاب هذا المذهب المونوفيزيتى وقد بذلت لهم ثيودورا الحماية ، وعملت جاهدة على إخفائهم بشتى الوسائل ، ومن طريف ما يذكر فى هذا المجال ، أن أحد هؤلاء وهو البطريرك انثيموس بحث عنه جستنيان فى كل مكان لمحاكمته على هرطقته دون أن يعثر له على أثر وبعد وفاة ثيودورا فى عام ٥٤٨م ، دخل جستنيان إلى جناحها بالقصر الإمبراطورى لأمر ما ، وإذا به وجهاً لوجه أمام البطريرك انثيموس ، واتضح أن ثيودورا قد خبأته فى إحدى الغرف الداخلية بجناحها الخاص بالقصر الإمبراطورى لمدة اثنى عشرة سنة(٣) .

---

(1) Diehl : justinian's Government in the East, in C.M.H. ed. Bury, great Britain, 1976, vol II, p. 26.

(٢) موص : ميلاد العصور الوسطى ، ص ١٧٢ .

(3) Diehl : justinian's Government in the East, p. 45.
Runciman : Byzantine Civilisation, p. 191.

ومهما يكن ، فإنه مما لا جدال فيه أن ثيودورا كانت أبعد نظراً وأكثر إدراكاً من جستنيان للخطر السياسي الذى تتعرض له الملكية إذا اضطرت الأقاليم الرئيسية إلى التمرد بسبب اضطهاد عقائدها الدينية ، وبفضل مشورة ثيودورا انتهجت الدولة فى أنسب الأوقات سياسة التسامح وتقديم التنازلات التى كانت ضرورية لمنع وقوع هذه الكارثة .

وهكذا أثبتت ثيودورا كفاءة ممتازة ومقدرة كبيرة فى تصريف شئون الإمبراطورية ، ويعود إليها الفضل فى احتفاظ جستنيان بعرشه بعد أن وقفت بحزم وصمود أمام تلك الزوبعة التى كادت أن تقضى عليه والتى تمثلت فى الفتنة المعروفة باسم نيقا Nika كما سيتضح من عرضنا للأحداث المقبلة .

أما عن نارسيس (٤٧٨ - ٥٧٣م) فقد ولد فى إرمينيا ، وكان طواشياً ضئيل الحجم ، ولكنه لطيف وأنيق المظهر ، وكان فى البداية رئيساً للطواشية Sacellarius فى الحرس الإمبراطورى ، ثم أصبح كبير الحجاب :
Praepositus Sacri Culiculi
ونظراً لأنه كان طواشياً ، فقد كان لا يطمع فى العرش الإمبراطورى ، وكان ذلك سبباً فى حسن العلاقات بينه وبين جستنيان .

وقد شارك نارسيس فى القضاء على فتنة نيقا فى ٥٣٢ ، كما شارك فى الحروب التى قام بها جستنيان فى إيطاليا ضد القوط الشرقيين مع زميله بليزاريوس . وفى عام ٥٣٩ استدعى نارسيس إلى القسطنطينية ، ثم غادرها فى صيف ٥٥١ على رأس القوات التى ذهبت إلى البلقان لمقاتلة قبائل الهون والجبيد واللومبارد . وفى نفس العام ذهب إلى إيطاليا لمواصلة القتال ضد

القوط الشرقيين بقيادة زعيمهم توتيلا Totila الذى هزمه نارسيس ، ثم واصل حروبه فى شمال إيطاليا ضد الألمان والفرنجة والبرجنديين الذين هاجموا شمال إيطاليا ، وأقر السيادة الإمبراطورية هناك ، وحكم إيطاليا وأبدى الكثير من العنت والظلم تجاه الأهالى ، كما تشدد فى جمع الضرائب منهم ، وفى عام ٥٧٦ استدعاه الإمبراطور جستين الثانى ، الذى عاقبه بعد أن اتهمه بأنه السبب فى إغراء اللومبارد على مهاجمة شمال إيطاليا. على أن ما مر به من أحداث فى أواخر حياته لم يحجب عن الأنظار ما بذله من جهود فى خدمة الإمبراطورية وخاصة أثناء حياة الإمبراطور جستنيان(١) .

وبالنسبة لبليزاريوس ، فهو يعتبر من أشهر القادة فى التاريخ البيزنطى كله ، ولد فى عام ٥٠٥م . وكان صديقاً للإمبراطور جستنيان ، كما أن زوجته أنتونينا Antonina كانت صديقة للإمبراطورة ثيودورا . وقد بدأ بليزاريوس يلمع فى ميدان العسكرية فى موقعة دارا عام ٥٣٠م . ثم عين قائداً للشرق ، وفى عام ٥٣٢ تمكن بالتعاون مع نارسيس من القضاء على فتنة نيقا ، ثم أرسله جستنيان فى عام ٥٣٣ إلى شمال إفريقية حيث تم له القضاء على مملكة الواندال بها ، وأسر زعيمهم وعاد به إلى القسطنطينية ، وبعد الاحتفال بانتصاره ، أرسل إلى إيطاليا فى محاولة استعادتها للإمبراطورية من يد القوط الشرقيين على أن العلاقات لم تلبث أن ساءت بينه وبين الإمبراطور جستنيان بعد أن علم أن القوط الشرقيين فى إيطاليا يرغبون فى تتويج بليزاريوس امبراطوراً عليهم ، فاستدعاه جستنيان إلى القسطنطينية

(١) Vasiliev : op. cit., vol. I. pp. 137, 173.
Ostrogorsky : op. cit. pp. 70 — 73.
J. M. Hy. : Narses, Encyclopedia Bıitannica, 1965, U. S. A., vol. 16, p. 35.

بحجة الحاجة إليه لقتال الفرس الذين هاجموا الحدود الشرقية للإمبراطورية على أن معاودة القوط الشرقيين للحرب ضد النفوذ الإمبراطورى اضطر الإمبراطور جستنيان لإرساله من جديد لإيطاليا ، ثم استدعاه فى عام ٥٤٩ . وفى عام ٥٥٩ قاتل بليزاريوس البلغار الذين هاجموا أسوار العاصمة البيزنطية وأجلاهم عنها .

ونظراً لشجاعة بليزاريوس فى القتال وسيطرته التامة على الجنود رغم تعدد عناصرهم . ولكرمه وإنسانيته ، فقد تعلق به الجنود لدرجة كبيرة أثارت مخاوف جستنيان ، مما جعله لا يطمئن إليه ولا يثق به . ومن ثمة فقد اتهمه بالتآمر ضده وتم القبض عليه وسجنه فى عام ٥٦٢ م .

ويقال إن بليزاريوس قضى الفترة الأخيرة من حياته فى فقر وبؤس ، حتى اضطر للتسول بعد أن فقد بصره . ولكن هذه الرواية غير حقيقية ؛ لأن الثابت أن جستنيان عفى عنه فى عام ٥٦٣ م وقربه إليه حتى وفاة الإمبراطور فى ٥٦٥(١) .

وبخصوص تريبونيان Tribonianus ، فقد ولد فى إقليم بامفيليه ، على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وفى البداية اشتغل بمهنة المحاماة فى القسطنطينية ، وكان نبوغه ومهارته فى المحاماة مما لفت نظر جستنيان إليه ، فقربه وصار تريبونيان يتمتع بعطف الإمبراطور ، الذى عينه فى ٥٢٨ فى منصب رئيس دواوين الموظفين ...

---

(1) Gidbon : op. cit., vol 4, pp. 360 - 364.
Vasiliev : op cit. vol. I, pp. 135 — 137.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70 — 72.
T. A. R. : Belisarius, Encyclopedia Biitannica, U. S. A., 1965. vol. 3, p. 438.

Magister officiorum وفى سنة ٥٣٠ م عينه وزيراً للقضاء ... Quaestor Sacripalatii « حارس القصر المقدس » . وفى عام ٥٣٢ عزله من هذا المنصب تنفيذاً لرغبة الجماهير أثناء فتنة نيقا ، لكنه أعاده لمنصبه مرة أخرى فى عام ٥٣٤م ، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته فى ٥٤٥م .

وقد هاجم المؤرخ بروكوبيوس تريبونيان واتهمه بالرشوة والإلحاد . ويبدو أن اهتمام تريبونيان بالفلسفة ، والفلك ، والتقويم كان وراء هذا الإتهام . على أن الإهتمام الأكبر لتريبونيان كان بالقانون وقد أوكل إليه جستنيان مهمة الإشراف على الإصلاحات التشريعية التى تمت فى عهده(١) .

أما يوحنا القبدوقى . فهو مواطن من مدينة قيصرية فى إقليم قبادوقيا بدأ حياته كرجل دين فى خدمة رئيس العسكر ، وبطريق الصدفة تعرف به جستنيان . فعينه فى وظيفة (مراقب الحسابات) Logothete ليراقب مقيمى وجامعى الضرائب فى الولايات ، ولم يلبث أن رقى حتى أصبح يشغل وظيفة (الوالى البريتورى) Praetorian prefect وكان ذلك قبل سنة ٥٣١م .

ولم يكن يوحنا يملك المؤهلات الأساسية التى تؤهله للقيام بواجبات هذه الوظيفة . إذ أنه لم يتلق قدراً كافياً من التعليم . وبالكاد كان يقرأ ويكتب . لكن ذلك لم يكن يهم الإمبراطور جستنيان فى شىء . طالما أن يوحنا كان يمتلك المؤهلات الأكثر أهمية فى نظر الإمبراطور . فقد كان

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70 - 75.
Vasiliev : op. cit., vol I, pp. 142 - 143.
Runcinan : Byzantine Civilisation, pp. 38, 75.
J. A. C. T. : Tribonian, in Encyclopedio, Britannica vol 22 p. 4((.

موهوباً بل داهية فى إبتكار الأساليب المختلفة من أجل جمع المال من الشعب المغلوب على أمره . وكان يوحنا يوصف بأنه من أذكى وأجرأ الرجال فى عصره . كما وصف كذلك بأنه معدوم الضمير ، ففى الوقت الذى كان يمد الإمبراطور بما يحتاجه من المال جمع لنفسه ثروة طائلة ، فقد كان « لا يخشى الله ولا يحترم الرجال » .

وقد قاست الولايات وخاصة ولايتى ليديا lydia وقيليقية Cilicia من أساليب الابتزاز التى مارسها يوحنا القبدوقى ومساعده الذى يدعى يوحنا أيضاً والذى أطلق عليه الأهالى اسم Maxilloplumacivs أى (المتفخ الاوداج) وقد زار يوحنا فيلادلفيا Philadelphia . عاصمة ليديا ، ولم يترك اناء أو زوجة أو طفل أو صبية فى منزل إلا واستولى عليهم .

وقد جنى جستنيان ثمار سياسة الابتزاز هذه . فأمده يوحنا القبدوقى بما احتاجه من الأموال ، ولذلك كان الإمبراطور على استعداد لأن يغمض عينيه ويتغاضى عن أسلوب يوحنا فى الإبتزاز .

لكن الإمبراطورة ثيودورا كانت تكن الكراهية ليوحنا . وربما يرجع ذلك إلى تعاطفها مع الطبقات الفقيرة التى طحنها يوحنا وسحقها تحت وطأة المطالبة المستمرة بالأموال وقد أخذت ثيودورا توضح لجستنيان أن استمرار يوحنا القبدوقى فى ظلمه للأهالى على هذا النحو سيعرض مركز الإمبراطور للخطـر .

وهكذا ، وبإيعاز من ثيودورا نفى يوحنا القبدوقى إلى قزيقوس على ساحل البحر الأسود ، وحدث أن قتل أسقف قزيقوس وكان يدعى Eusebius وقد اتهم يوحنا بقتله نظراً لما كان بين الرجلين من عداء .

وقبل أن يتم القبض على يوحنا ، نجح فى الفرار إلى مصر ولكن السلطات البيزنطية تتبعته إلى هناك وتم القبض عليه وإرساله إلى القسطنطينية لمحاكمته ، وقد حاولت ثيودورا جاهدة أن تلصق به تهمة القتل حتى يتم قتله والتخلص منه ، ولكن نظراً لعدم ثبوت الأدلة عليه فقد سجن فقط ، وظل بالسجن حتى وفاة ثيودورا فى ٥٤٨ ، وبعد وفاتها أطلق جستنيان سراحه وعاش بالعاصمة البيزنطية بعد أن انخرط فى سلك رجال الدين(١) .

كان هؤلاء أهم مستشارى ومساعدى الإمبراطور جستنيان ،الذى مكنته بصيرته النافذة من اكتشاف مواهب كل واحد منهم فى ميدان تخصصه . وقد اعتمد الامبراطور على مشورتهم وجهودهم لتنفيذ الإنجازات الضخمة التى تمت فى عهده . وقد ظهرت جهودهم بصورة واضحة منذ بداية عهده . وأثناء الفتنة التى حدثت فى عام ٥٣٢م .

تعرف هذه الفتنة باسم Nika (٢) وهى كلمة يونانية معناها (النصر) كان المتظاهرون يهتفون بها أثناء ثورتهم . وإذا بحثنا عن أسباب هذه الفتنة وجدنا أنها أسباباً متعددة . بعضها دينى نشأ عن اضطهاد من اعتنق مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وبعضها سياسى . إذ أن أبناء أخ الإمبراطور السابق انستاسيوس اعتبروا جستين وجستنيان مغتصبين لحقهم فى الحكم . وبعض هذه الأسباب كان عاماً يتعلق بثقل عبء الضرائب على الشعب .

ذلك أن جستنيان قد اعتمد على تريبونيان فى القضاء . ويوحنا القبدوقى فى الإدارة ، وطغى الإثنان وتجاوزا الحد فى إبتزاز الأموال ، وفى فرض

---

(1) Bury : History of the later Roman Empire, vol 2, pp. 36 - 37 58 - 59.
Barker : justinian and the later Roman Empire, pp. 72 - 75.

(٢) Nika هى آلهة النصر عند اليونان ، وتمثل عادة على صورة فتاة مجنحة تحمل بأحدى يديها أكليلا وباليد الأخرى سعفة نخيل .

الضرائب على الشعب الذى انتفض ثائراً على هذه الأوضاع ، وكان أكثر الثائرين هم أفراد حزبى الزرق والخضر ، ولمعرفة المزيد عن هذين الحزبين ينبغى العودة قليلا إلى الوراء . حين أسس الإمبراطور قسطنطين الأكبر مدينة القسطنطينية فى عام ٣٢٣ م . أنشأ بها ملعباً كبيراً عرف باسم الهيبدروم Hippodromius أصبح مسرحاً للسياسة ولجميع مظاهر الحياة العامة فى العاصمة . وكان بالملعب الكاثيسمة Kathisma أى لوج الإمبراطور ، وكان العرش العظيم الذى أقيم فى وسط هذا اللوج ، هو المكان الذى يطل منه الإمبراطور على شعبه فى مختلف المناسبات ، وكان يقام فى الهيبدروم سباق للخيل ، وكان سائقو عربات السباق يتزينون بواحد من أربعة ألوان ، الأخضر أو الأزرق أو الأبيض أو الأحمر . والغالب أنها تقابل العناصر الأربعة المعروفة وهى : الأرض (الخضراء) والماء (الأزرق) والهواء (الأبيض) والنار (الحمراء)(١) .

وبمرور الوقت أصبحت هذه الأحزاب الرياضية أحزاباً سياسية واجتماعية ، وانضم البيض إلى الخضر ، والحمر إلى الزرق . فأصبح فى العاصمة حزبان فقط هما : الخضر والزرق . وكان الخضر من الطبقات السفلى الذين كانت تشملهم الإمبراطورة ثيودورا بعطفها ، على حين كان الزرق يمثلون الطبقات العليا فى المجتمع البيزنطى .

ورغم أن هذين الحزبين كانا متنافسين ، إلا أنهما اتحدا ضد جستنيان وقاما بالثورة ، وانطلقا إلى الهيبدروم ، وخرجت جموعهم منه يخربون ويحرقون ويصيحون « نيقا » ، وتعرضت أجمل المبانى وأروعها للإحراق

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Vol. I, pp. 144— 145 (1)

والتدمير ، وكانت كنيسة آيا صوفيا ضمن تلك المبانى . واضطر جستنيان لمفاوضتهم ، وعزل تريبونيان ويوحنا القبدوقى ، ولكن الثائرين لم يهدأوا ، بل نادوا بابن أخ الإمبراطور السابق انستاسيوس امبراطوراً .

وعندما تحرج مركز جستنيان جمع مستشاريه وشاورهم فى الفرار من العاصمة ، وأجمعوا على ذلك . لكن الإمبراطورة ثيودورا خالفتهم فى الرأى وواجهت الموقف فى صمود وشجاعة . وقد أورد المؤرخ بروكوبيوس نص العبارة التى خاطبت بها ثيودورا جستنيان ، قالت : « يستحيل على الفرد وقد جاء إلى هذه الدنيا ، أن يبقى حياً أبد الدهر ، فلا بد أنه سوف يموت ، ولكن من يمارس السلطة لا يطيق النفى ، وإن ترغب أيها الإمبراطور أن تنقذ نفسك ، فليس هناك ما يمنعك ، فالبحر قريب ، والسفن مجهزة ، والمال موفور . ولكن تريث قليلا وسل نفسك : ألن تندم بعد فرارك ووصولك إلى ملجأ أمين فتود لو كنت آثرت الموت على الأمان ؟ أما أنا فلا زلت أتمسك بالمثل القديم الذى يقول : « إن العباءة الإمبراطورية هى خير الأكفان »(١) .

وقد تأثر جستنيان بهذا الموقف الشجاع من جانب ثيودورا ، فأوعز إلى نارسيس بأن يقضى على وحدة المتظاهرين ، فتم التفاهم بينه وبين الزرق ، فى حين أمر بليزاريوس بأن يخضعهم بالقوة . ففاجأهم فى الهيدروم وفتك

---

(1) Procopius : De bello persico, ed Havry, vol. 1, p. 130.
Ostrogorsky : op. cit. pp. 72 — 73.
Vasiliev : op. cit. pp. 154 — 157
Bury : op. cit., p. 45
Barker : op. cit, p. 88

بهم فتكاً ، وقتل آلافاً منهم ، أما أقرباء انستاسيوس فقد تم إعدامهم ، وبذلك رسخت أقدام جستنيان وثبتت سلطته(١) .

---

(١) بخصوص فتنة نيقا أنظر المراجع التالية :

Barker : justinian and the later Roman Empire, pp. 82 - 91.
Bury : History of the later Roman Empire, vol. 2, pp. 39 — 48.
Diehe :justinian The Imperial restoration in the west. in c. M.H. ed. Bury, vol 11, pp. 9 - 11.
Ostrogorsky : op. cit. pp. 72 — 73.
Vasiliev : op. cit., pp. 154 — 157.

أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٧٠ — ١٧١ .
عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٤٦ — ٤٨ .
العريني : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٦٩ — ٧١ .

الفصل الثانى

جستنيان والمثالية الرومانية

- البرابرة الجرمان وكيفية استيلائهم على الممتلكات الرومانية بالغرب .
- استرجاع جستنيان لولايات شمال إفريقية ، إيطاليا ، وأسبانيا .
- الصراع مع الفرس .
- الأخطار التى هددت الجبهة الشمالية .

لقد اتجه جستنيان بأنظاره نحو أقاليم الإمبراطورية فى الغرب ، التى كانت تحت أيدى البرابرة الجرمان ، وبذل كل جهده فى سبيل استرجاع هذه الأقاليم من جديد لسلطان الإمبراطور الرومانى الشرقى ، وكان فى سعيه الحثيث هذا وتصميمه على استرجاع هذه الأقاليم إنما يحقق بذلك المثالية الرومانية(١) .

وقبل أن نعرض للجهود التى قام بها جستنيان لاسترجاع ممتلكات الإمبراطورية الغربية التى استولى عليها الجرمان ، يجدر بنا أن نأخذ فكرة سريعة عن أصل هؤلاء الجرمان ، وعن كيفية سقوط هذه الأجزاء من الإمبراطورية الغربية فى أيديهم .

الواقع أن المعلومات التاريخية عن أصلهم قليلة ، ليست أكثر من أنهم أقوام حلوا أوائل عهدهم بالقارة الأوروبية ونزلوا بشبه جزيرة سكنديناوة ، حيث بقى فريق تفرعت عليه الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية ، أما الفريق الآخر ، فقد أخذ فى التجول والترحال فى الجنوب الغربى عبر ألمانيا سعياً وراء العيش أو الجو المعتدل ، أو حباً فى المغامرة والحرب ، حتى وصلت فئة منهم إلى حوض نهر الراين ، كما وصلت فئة أخرى إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود . وهذان التياران هما اللذان اصطدمت بهما الدولة الرومانية(٢) .

وكان عنصر القوط من تلك الأقوام التى استقرت شمالى البحر الأسود ، وهناك انقسموا إلى قسمين : شرقيون وغربيون ، فانتشر الشرقيون فوق

---

(١) أنظر الفصل الأخير من هذا البحث ص ٨٨ — ٩٠.

(٢) فيشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ص ١٥ — ١٦ .

السهول الجنوبية لروسيا ، فى حين اتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان حيث سمح لهم بالاستقرار فى هذه الجهات .

وقد نتج عن احتكاك القوط بالرومان ، أن اعتنق القوط المسيحية ولكن فى مذهبها الأريوسى عن طريق مبشر منهم يدعى ولفلاس Wulfilas تلقى تعليمه بالقسطنطينية واعتنق المسيحية على المذهب الأريوسى مما أدى إلى إنتشار الأريوسية بين القوط ، ثم بين غيرهم من طوائف الجرمان مثل : الواندال والبرجنديين واللمبارديين(١) . وسيكون هذا المذهب الأريوسى من أهم الأسباب فيما حل بالقوط والواندال من متاعب ، وحال دون حسن التفاهم بينهم وبين سكان البلاد الرومان الذين نظروا إليهم على أنهم سادة كفرة ينبغى التخلص منهم ، وسهل على جستنيان مهمة استعادة ولايات الإمبراطورية .

وكانت بداية الاشتباكات العسكرية بين القوط الغربيين والرومان فى النصف الثانى من القرن الرابع حين ضغطت عليهم قبائل آسيوية رعوية هى قبائل الهون ، فطلب القوط الغربيون من الإمبراطور فالنز (٣٦٤ — ٣٧٨م) السماح لهم بعبور الدانوب ليسلموا من خطر الهون . ورغم استجابة الإمبراطور لهذا الطلب — وخاصة ليتخذ منهم ستاراً يحمى به حدود الإمبراطورية من خطر الهون — إلا أنهم لم يلبثوا أن ثاروا وأوقعوا بفالنز الهزيمة وذبحوه فى سهول أدرنة فى ٣٧٨م . ولم يجد خليفته الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٨ — ٣٩٥م) بدا من محالفتهم ، وسمح لهم بالإقامة

---

(١) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 44
: The goths, p. 61.

فى شمال تراقيا ، وقد تمتع القوط بسلطتهم المطلقة فى هذا الإقليم ، كما أعفوا من الضرائب مقابل تعهدهم بتقديم الخدمة العسكرية للإمبراطورية(١) .

وقد ظل الهدوء يسيطر على العلاقات بين القوط الغربيين والإمبراطورية الرومانية حتى وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس فى عام ٣٩٥ وانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين : شرقى ، كان من نصيب أركاديوس ، وغربى ، كان من نصيب هونوريوس .

وعندئذ ثار القوط الغربيون من جديد ، وجرت وقائع كثيرة بينهم وبين جيوش الإمبراطورية(٢) ، حتى اقتحموا روما فى ٤١٠ م فنهبوها وأحرقوا بيوتها ، وعندئذ وجد الإمبراطور هونوريوس الذى كان فى عاصمته رافنا أنه لكى يبعد القوط الغربيين عن إيطاليا ، لا بد من أن يعطيهم إقليما من أقاليم الإمبراطورية ، فمنحهم إقليم أكوتين من اللوار حتى البرانس ، وكان هذا الإقليم فى عداد الأقاليم الضائعة على الإمبراطورية نظراً لوقوعه تحت سيطرة جموع كثيرة من الجرمان مثل : الواندال واللان والسويفى ، وهكذا دخل القوط الغربيون فى صراع مرير مع هذه العناصر حتى تمكنوا فى النهاية فى عام ٤٢٩ من تخليص المنطقة الممتدة من تولوز على نهر الجارون إلى أسبانيا واستخلاصها لأنفسهم ، وظلوا بها حتى عصر جستنيان(٣) .

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 48.

(٢) بشأن المزيد من التفاصيل انظر :

Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 116.

Lot : The End of Ancient World, p. 205.

C.M.H. Ed Bury, vol. I, pp. 260 — 279.

سعيد عاشور : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ص ٦٦ — ٧١ .

(٣) Lot : op. cit., p. 205

أما بالنسبة للواندال فتحت زعامة ملكهم جيزريك Gaiseric خرجوا من أسبانيا سنة ٤٢٩ بعد أن احتلها القوط الغربيون ، وعبروا البحر إلى شمال إفريقية حيث ساعدتهم الظروف على الاستيلاء على المنطقة من طنجة حتى طرابلس ، وتمكنوا كذلك من الاستيلاء على قرطاجة ، أهم مدينة فى الغرب بعد روما فى سنة ٤٣٩ م .

وقد عامل الواندال أهالى البلاد معاملة سيئة للغاية ، حتى اصبح لفظ الواندالية Vandalism فى اللغات الأوروبية الحديثة يعنى الهمجية والوحشية ، فقاموا بمصادرة ممتلكات الأهالى ، وصادر جيزريك كذلك — وهو الملك الأريوسى — ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى شمال إفريقية ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك . كما لجأ إلى العنف والقسوة لجمع الضرائب من الأهالى ، مما جعل الإستياء عاماً بينهم ضد هؤلاء الواندال الكفرة(١) .

ولم يقنع الواندال بما سيطروا عليه من مناطق فى شمال إفريقية ، وإنما أنشأوا لأنفسهم أسطولا بحرياً ، ولم يمض إلا القليل من الزمن حتى أصبحوا أعظم قوة بحرية فى غرب البحر الأبيض المتوسط وأخذوا فى الإغارة على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية(٢) .

وفيما يتعلق بالقوط الشرقيين فقد ظلوا مقيمين فى جنوب روسيا وخضعوا للهون قرابة سبع وسبعين سنة ، حتى توفى آتيلا زعيم الهون فى

---

(1) Oman : The Dark Ages, pp. 7 — 9.

(2) C. M. H., ed. Bury, vol. I, pp. 306 — 308.

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٣١ .

سنة ٤٥٣ وانهارت امبراطوريته ، فتحرر القوط الشرقيون من سيطرة الهون ، وأخذوا يتجولون فى منطقة البلقان تحت قيادة زعيمهم ثيودريك Theodoric وبعد أن سببوا مضايقات كثيرة ومتاعب جمة للإمبراطورية الشرقية ، وجد الإمبراطور زينو Zeno أن خير وسيلة للتخلص منهم هي أن يمنحهم إيطاليا ، التى كان يسيطر عليها Odoacer أدواكر(١) زعيم إحدى القبائل الجرمانية ، وكان قد تم له إسقاط الإمبراطورية الغربية فى عام ٤٧٦ م حين عزل آخر الأباطرة الرومان ويدعى رومولوس أجوسطولوس Romulus Augustulus ونفاه إلى جنوب إيطاليا ، وخصص له معاش كاف ، وحكم إيطاليا كنائب عن الإمبراطور الشرقى زينو ، واتخذ لقب « سيد الجند فى إيطاليا » . Magister militum per Italiam (٢) .

وهكذا اتجه القوط الشرقيون فى سنة ٤٨٩ م ، إلى إيطاليا ، حيث نازلوا أدواكر Odoacer . وأنزلوا به عدة هزائم ، وحاصروه فى رافنا ، ثم اقتحموها وقتلوه سنة ٤٩٣ م ، وحكم ثيودريك زعيم القوط الشرقيين إيطاليا باسم الإمبراطور البيزنطى(٣) .

---

(١) يقول الدكتور نبيه عاقل فى كتابه «الإمبراطورية البيزنطية» صفحة ٣٤ :
«وشهد حكم زينو تداعى وسقوط الجزء الغربى من الإمبراطورية . فى الوقت الذى عاد فيه إلى العرش بعد مؤامرة إقصائه أعلن إمبراطور الجزء الغربى وكان اسمه أدواكر أنه يتنازل عن كرسيه ويعتبر نفسه تابعاً لإمبراطور الجزء الشرقى» .
ولكن هذا غير صحيح ، فأدواكر لم يكن إمبراطوراً رومانياً ، ولكنه كان زعيم أحد جموع البرابرة الجرمان ، كما أنه لم يحكم الجزء الغربى كله ، وإنما اقتصر حكمه على إيطاليا فقط .
= انظر المراجع التالية :
Bury : History of the Later Roman Empire, vol. I, p. 40 6.
C.M.H. ed. Bury, vol. I, pp. 430 — 433.

(2) Ostrogorsky : op. cit., p. 62.

(3) Ostrogorsky : op. cit., pp. 62 — 63.
Lot : The End of the Ancient World, p. 240.

وكان ثيودريك يحكم إيطاليا كأنه حاكماً رومانياً ، وليس زعيما بربرياً ، واتخذ رافنا عاصمة لمملكته فى إيطاليا ، وبفضله تمتعت إيطاليا بفترة سلام امتدت لمدة ست وثلاثين سنة ، فوسع حدودها ، وشمل مجلس الشيوخ الرومانى برعايته واحترامه ، ولم يصدر تشريعاً أو يسك عملة إلا وعليها إسم الإمبراطور البيزنطى ، كما أنه وهو الملك الأريوسى لم يسىء إلى الأوضاع الدينية فى روما ، أما الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة فإن ثيودريك لم يكتف باختيار مجموعة من الموظفين الإيطاليين الأكفاء لها فحسب ، بل حرص على أن يكون هؤلاء الموظفون من سلالة النبلاء ، وطبقة السناتو الذين كانوا يديرون شئون الإمبراطورية الرومانية فى سالف مجدها . ولكن رغم كل جهود ثيودريك إلا أن الاختلاف فى المذهب ظل يحول دون حسن التفاهم بين الإيطاليين والقوط الشرقيين(١) .

وهكذا نجح البرابرة الجرمان فى تأسيس ممالك لهم على أنقاض الإمبراطورية الغربية ، وعند اعتلاء جستنيان للعرش كان هناك مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا ، والقوط الشرقيون يحكمون فى إيطاليا ، والوندال يسيطرون على شمال إفريقية . ومملكة الفرنجة فى غالة ، فى حين تغلب الإنجلز والسكسون على بريطانيا(٢) .

(I) Lot : op. it. p. 241.

فيشر : حـ ١ ، ص ص ٣٤ — ٣٦ .
سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٨٦ — ٨٨ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن الفرنجة والإنجلز والسكسون ، انظر :
سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٧٨ — ٨٥ — ٨٩ — ٩٢ .
فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٣٨ — ٤٢ .
Hodgkin : The History of England, pp. 72 — 73, 108, 195 — 209.
C.M.H. ed Bury, vol. I, pp. 398 — 381. Vol. 3, p. 540.

وقد بدأ جستنيان بالوندال فى شمال إفريقية ، والواقع أن إرسال حملة ضد الواندال لم يكن بالأمر البسيط ، وذلك لبعد المسافة ، إذ كان لزاماً على الإمبراطور أن ينقل جيشه الضخم عن طريق البحر ، والمعروف عن الواندال أنهم يمثلون قوة حربية خطيرة وذلك لبراعتهم فى فنون القتال البحرى وامتلاكهم لأسطول قوى . ولذلك كان جستنيان متردداً فى إرساله لهذه الحملة وقد أوضح بروكوبيوس فى كتابه عن حـــرب الواندال De Bello Vandalico أن الإمبراطـور عقـد اجتماعـاً بالقصـر الإمبراطـورى . وناقش مـــع مستشاريه مسألة الحملة ضد الواندال ، وقد أوضح له هؤلاء المستشارون مخاوفهم وشكوكهم فى نجاح الحملة التى كانت فى رأيهم تمثل مخاطرة كبيرة . ورغم هذا كله فقد كانت رغبة الإمبراطور جستنيان فى استرجاع أملاك الإمبراطورية الرومانية ، أقوى من كل المخاوف وكل الشكوك ، فأصر على إرسال هذه الحملة(١) .

وربما شجع جستنيان على إرسال هذه الحملة ، إدراكه أن الواندال قد فقدوا ما عرف عنهم من العنف نظراً لتأثرهم بالحضارة الرومانية ، كذلك لاختلاف المناخ الذى عاشوا فيه فى شمال إفريقية عن مناخ بلادهم فى شمال أوروبا . يضاف لذلك تشجيع اللاجئين من رجال الدين الذين فروا من وجه الواندال ، والذين أكدوا لجستنيان أن حملته ستلقى كل ترحيب وتعاون من جانب الأهالى فى شمال إفريقية ، نظراً لكراهيتهم للواندال الذين يختلفون معهم فى المذهب(٢) .

---

(1) Procopius : De Bello Vandalico, English Trans. by Dewing, vol. II, pp. 90 — 101.

(2) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 135 — 136.

وكان جستنيان يدرك طبيعة العداء بين الممالك الجرمانية ، هذا العداء الذى لن يتيح لها الإتحاد سوياً لمقاومته ، فقد كان الواندال على علاقات سيئة مع القوط الشرقيين فى إيطاليا ، وكان القوط الشرقيون فى حالة نزاع مع دولة الفرنجة فى غالة ، كما أن بعد المسافة بين القوط الغربيين فى أسبانيا وباقى ممالك الجرمان . لن يتيح لهم القيام بدور فعال فى الحرب بينهم وبين جيوش جستنيان . وبالتالى تتمكن هذه الجيوش من القضاء على كل عدو على حدة(١) .

وفى يونية سنة ٥٣٣ م ، خرجت الحملة المكونة من ١٥ ألف جندى تقلهم اثنتان وتسعون سفينة حربية (درومونة) ، وكان على رأسى تلك الحملة القائد بليزاريوس ، وفى سبتمبر من نفس العام وصل بليزاريوس بحملته أمام قرطاجة عاصمة الواندال ، حيث دخل فى معركتين مع جليمار ملك الواندال أحرز فيهما انتصاراً حاسماً ، ودخل قرطاجة حيث قوبل بالترحاب الحار من الأهالى . وهكذا قضى على الواندال ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، وعاد بليزاريوس إلى القسطنطينية ، وصحب معه ملك الواندال أسيراً . وفى العاصمة البيزنطية تم الاحتفال بهذا الانتصار ، وعين جستنيان أحد القادة البيزنطيين ويدعى سلومون Solomon حاكماً على شمال إفريقية ، ولكن هذا الحاكم لقى مقاومة شديدة للنفوذ البيزنطى من قبائل البربر مما تطلب منه أن يخوض نضالا مريراً ضدهم انتهى بقتله على أيديهم . واستمرت الحرب مشتعلة بين البيزنطيين والبربر مدة طويلة ، حتى تم للقائد البيزنطى يوحنا تريجليت John Triglite أن يقضى على مقاومة البربر ، وأن يوطد

(1) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 135 — 136.

النفوذ البيزنطى هناك ، وكان ذلك فى عام ٥٤٨ م(١) .

وهكذا تم لجستنيان استعادة إقليم من الأقاليم التى احتلها البرابرة الجرمان ، كذلك تمكن من استعادة جزر البليار وسردينيا وكورسيكا ، وكان لهذا صداه الطيب فى نفسه ، مما جعله يعلن فى فخر واعتزاز : « أن الله جلت قدرته تداركنا برحمته ، فلم يرجع إلينا فحسب إفريقية وأقاليمها ، بل أعاد إلينا أيضاً عباءتنا الإمبراطورية التى أخذها الواندال حينما استولوا على روما »(٢) .

بعد ذلك اتجهت أنظار جستنيان صوب إيطاليا التى كان يحكمها القوط الشرقيون ، وقد استغل جستنيان الخلافات والصراع الداخلى بين القوط ليتدخل ويستعيد هذه الولاية . فبعد وفاة ثيودريك فى عام ٥٢٦ م خلفه حفيده أثالاريك .. Athalaric وتولت أمه آمالاسونثا Amalasuntha تصريف شئون الحكم كوصية على ابنها . وكانت هذه الوصية مثل أبيها ثيودريك من المعجبين بالحضارة البيزنطية ، وحرصت على إقامة علاقات طيبة مع بيزنطة . ولكن هذا لم يعجب زعماء القوط الذين لم يلبثوا أن قتلوا آمالاسونثا ، وبذلك هيأوا الفرصة لجستنيان للتدخل ، فأرسل جيشاً إلى إيطاليا اتخذ طريق دالماشيا ، بينما أرسل أسطولا بقيادة بليزاريوس ، نزل بصقلية أولا واستولى عليها دون مقاومة تذكر ، فى نفس الوقت أرسلت سفارة إلى مملكة الفرنجة فى غالة (فرنسا) لكسب ودها لضمان عدم مساعدتها للقوط .

(1) Vasiliev : op. cit., p. 136.
Barker : op. cit., pp. 139 — 145.
Bury : History of the later Roman Emipire, vol 2, pp. 125 — 150.

(٢) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 136.

بعد استيلاء بليزاريوس على صقلية ، اتجه إلى إيطاليا حيث تم له الإستيلاء على نابولى ، ثم دخل روما ولكنه تعرض داخلها لحصار شديد من جانب القوط ، وتمكن من اختراق هذا الحصار بصعوبة شديدة ، ثم إتجه شمالا إلى رافنا عاصمة القوط فاستولى عليها وهزم ملكهم الذى يدعى فيتيجس Vitiges وكان ذلك فى سنة ٥٤٠ م ، وأرسله بليزاريوس أسيراً إلى القسطنطينية .

لكن كثيراً من القوط لم يستسلموا ، وأعلنوا أحدهم ويدعى Ildidad ملكاً عليهم ، ولم يلبث إلا قليلا فى الحكم وخلفه Eraric ، وبعد فترة قصيرة من حكمه أعلنوا توتيلا Totila ملكاً عليهم فى خريف عام ٥٤١ م .

وقد قام توتيلا بطرد القادة الإمبراطوريين ، وسقطت مدينة تلو الأخرى فى يده ، مما تطلب أن يعيد الامبراطور جستنيان إرسال بليزاريوس إلى إيطاليا ، لكنه لم ينجح هذه المرة فى معالجة الموقف . ولما تعددت هزائمه أمام القوط ، استدعى إلى القسطنطينية وأرسل نارسيس بدلا منه . وقد تمكن هذا القائد الماهر من إنزال الهزيمة الساحقة بجيش توتيلا فى معركة Busta gallorum فى أمبريا Umbria وبعدها تمكن توتيلا من الفرار ، وفى عام ٥٥٤ م أى بعد عشرين عاماً من الحروب المخربة أعيدت إيطاليا وصقلية ودالماشيا من جديد إلى الإمبراطورية البيزنطية(١) .

وبقى أمام جستنيان القوط الغربيون فى أسبانيا ، فاستغل ما ثار بينهم

---

(١) بشأن الحرب ضد القوط الشرقيين أنظر :

Procopius : Bellum Gothicum, I, pp. 1 — 10.
Barker : justinian and the later Roman Empire, pp. 145 — 184.
Bury : op. cit, vol 2, pp. 151 — 286.

من صراع داخلى حول العرش ، وأرسل أسطولا بحرياً فى عام ٥٥٠ م ، فنازل القوط وانتصر عليهم ، واستولت القوات البيزنطية على العديد من المدن والحصون البحرية . وانتهى الأمر بخضوع الجزء الجنوبى الشرقى من أسبانيا ، بما فى ذلك قرطاجنة ومالطة وقرطبة . وهكذا امتدت الممتلكات البيزنطية من سانت فنسنت St. Vincent غرباً إلى قرطاجنة شرقاً(١) .

وقد كان من نتيجة هذه الحروب أن اتسعت رقعة إمبراطورية جستنيان ، وأصبحت تضم دالماشيا ، وإيطاليا ، والجزء الشرقى من شمال إفريقيا ، وجنوب شرق أسبانيا ، وجزر صقلية وسردينيا وكورسيكا والبليار . وهكذا امتدت حدود الإمبراطورية من جبل طارق حتى نهر الفرات . ولكن رغم ذلك ، فإن جستنيان لم يتمكن من استعادة جميع ممتلكات الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فما زال خارج سلطانه الجزء الغربى من شمال إفريقية ، ومعظم شبه جزيرة إيبريا ، والأجزاء الشمالية من مملكة القوط الشرقيين - شمال جبال الألب - وكذلك لم يستطع الاستيلاء على غالة وبريطانيا(٢) .

وإذا كان جستنيان قد تمكن من إحراز هذه الإنتصارات فى الغرب ، إلا أن الموقف فى الشرق كان مختلفاً ، حيث اشتعلت الحرب بين [illegible] الفرس .

Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 136 — 137.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70 — 71.

(1) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 137 — 138.
Ostrogorsky : op. cit., p. 71., Bury; op. cit. vol 2, p.p. 286 — 288.

(2) Vasiliev : op. cit., vol. I, p. 138.
Ostrogorsky : op. cit. p. 71.

أنظر كذلك الخريطة رقم (١) .

ففى عام ٥٢٧ م حينما اعتلى جستنيان العرش هاجمت جيوش قباد الأول Kavadh I ملك فارس الأراضى البيزنطية ، واشتبكت قواته مع الجيوش الإمبراطورية بقيادة بليزاريوس الذى أحرز الانتصار على الفرس عند دارا فى ٥٣٠ ، وانتصار آخر فى عام ٥٣١ عند الفرات فى كلينيكوم Callinicum وردهم عن غزو شمال سورية .

ثم توفى قباد فى ٥٣٢ ، فعرض ابنه وخليفته كسرى الأول أنوشروان Khosrau I — الذى يعد من أشهر ملوك آل ساسان — الصلح على جستنيان ، فوافق على الفور نظراً لما كان يدور بذهنه آنذاك من مشروعات لاستعادة أقاليم الإمبراطورية فى الغرب ، وأبرمت الإتفاقية فى عام ٥٣٣ ، وكانت فى صالح البيزنطيين الذين لم يفقدوا أية ممتلكات .

على أنه أثناء انشغال جستنيان بالحرب مع القوط الشرقيين فى إيطاليا ، أرسل هؤلاء وفداً إلى الملك الفارسى كسرى أنوشروان يحثونه على قتال البيزنطيين(١) ، وذلك حتى يفتح الفرس جبهة قتال ثانية أمام البيزنطيين يكون لها أثرها فى تخفيف وطأة القتال عليهم . فاستجاب لهم كسرى ، وخرج على رأس جيوش كثيفة وأغار على سورية ، واحتل إقليم الفرات ونهب وسبى ، ثم اتجه إلى منبج فى شمال سورية ففاوضه أهلها ، واشتروا منه الأمان بألف دينار فضة ، وتقدم بعد ذلك إلى أنطاكية التى كانت تمتاز بمناعتها الطبيعية لما يحيط بها من صخور ، فضلا عن الحصون التى أنشئت حولها ، وقاوم الأهالى بها جيوش الفرس ، ولكن كسرى اهتدى إلى ثغرة فى سورها دخل عن طريقها المدينة واستباحها ، ومنها انتقل إلى

(1) Procopius : Bellum Gothicum, pp. 1 — 4.

سلوقية ، حيث ذبح عند شاطئها ضحية للشمس ، ومنها إلى أفامية فدخلها ونهب دورها وكنائسها .

ولم يجد الإمبراطور مفراً — والأمر كذلك — من أن يفاوض كسرى ، فعرض عليه الكف عن القتال مقابل دفع الجزية السنوية ، فقبل كسرى وعاد إلى بلاده ومعه آلاف من الأسرى بنى لهم مدينة خاصة أطلق عليها اسم أنطاكية كسرى(١) .

وفى سنة ٥٤١ هاجم كسرى إقليم لازيقا على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، وفى سنوات ٥٤٢ ـ ٥٤٤ هاجم البلاد البيزنطية وأحرق وخرب وسلب ، وأنفذ جستنيان حملة فى ٥٤٣ من ثلاثين ألف جندى لمهاجمة البلاد الفارسية فى أرمينية ، ولكن الحملة منيت بالفشل ، وقد أدرك الطرفان المتحاربان صعوبة القتال فى بلاد القوقاز نظراً لطبيعة هذه البلاد الجبلية ووعورة مسالكها ، فتهادنا فى سنة ٥٤٤ وجددا الهدنة مرتين .

وفى سنة ٥٦١ م أبرمت هدنة بينهما لمدة خمسين سنة مقابل تعهد البيزنطيين بدفع الجزية السنوية لملك فارس ، وأن تجلوا القوات الفارسية عن لازيقا وتسلمها للبيزنطيين ، وبذلك لم يعد للفرس ممتلكات على ساحل البحر الأسود . وتعهد ملك فارس باتباع سياسة التسامح مع المسيحيين فى بلاده بشرط أن يمتنعوا عن التبشير بالمسيحية بين أهالى هذه البلاد(٢) .

---

(1) Procopius : Bello Persico, II, pp. 8 — 11.

(2) Barker : op. cit., pp. 112 — 124
Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 138 — 139.
Ostrogorsky : op. cit., p.
أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ص ١٨٥ — ١٨٦ — ١٨٨ — ١٩٠ .

أما على الجبهة الشمالية ، فقد تعرضت الإمبراطورية لهجمات متتالية من عناصر مختلفة من البرابرة . وقد أثبتت الأحداث أن نهر الدانوب لم يكن عائقاً أمام تقدم الأعداء ، فإن الدانوب الأدنى كان بالقرب من سهل يعتبر من قديم الزمان ممراً للمهاجمين البدو القادمين من آسيا . وفى منطقة البلقان كان الطريق مفتوحاً أمام المهاجمين البرابرة للتوغل فى أقاليم الإمبراطورية والوصول للقسطنطينية ذاتها(١) .

ومنذ زمن الإمبراطور أنستاسيوس Anastasius (٤٩١ — ٥١٨) والجبهة البلقانية تتعرض من آن لآخر لهجمات عناصر البلغار والسلاف ، وفى عصر جستنيان عبرت الدانوب أعداد كبيرة من هذه العناصر وتوغلوا فى الأقاليم البيزنطية مخربين كل ما يصادفهم ، وقد وصل فريق منهم إلى العاصمة القسطنطينية وإلى الهللسبونت ، والفريق الآخر توغلوا فى بلاد اليونان ، ووصلوا حتى خليج كورنثة وسواحل البحر الأدرياتيكى فى الغرب وقد قام السلاف بمحاولة للوصول لسواحل البحر الإيجى ، وفى أثناء محاولتهم هذه اجتاحوا فى طريقهم مدينة سالونيك ، التى تعتبر من أهم المدن فى الإمبراطورية ، وقد اشتبكت الجيوش البيزنطية معهم واضطرتهم للارتداد إلى ما وراء نهر الدانوب ، ورغم هذا إلا أن بعضاً منهم قد استقر فى هذه المنطقة ، ولم تتمكن جهود جستنيان العسكرية ضدهم من زحزحتهم عن هذه المناطق(٢) .

---

(1) Obolensky, D. : The Empire and Its Northern Neighbours, C. M. H. vol. Iv, part. I, pp. 475 — 476.
Moss : The Formation of the East Roman Empire (330 — 717), C.M.H. vol. IV, part. I, p. 29.

(2) Bury : op. cit., vol 2, p. 298 — 304.
Vasiliev : op. cit., vol I, p. 140.

وإلى جانب السلاف ظهرت عناصر أخرى مثل الجرمان Germans ، والجبيد Gepids ، والكوتريجور Kotrigurs وهم فرع من الهون ، هاجموا شبه جزيرة البلقان من الشمال . وفى شتاء ٥٥٨ — ٥٥٩ م ، قام الكوتريجور تحت قيادة زعيمهم الذى يدعى Zabergan بمهاجمة إقليم تراقيا ، وهناك تفرعوا إلى ثلاث فرق : واحدة ذهبت لتخريب بلاد اليونان ، والأخرى لنهب بعض المدن فى تراقيا ، أما الثالثة فتحت قيادة زعيمهم نفسه وصلت إلى القسطنطينية لمهاجمتها .

وقد عانت المناطق التى تعرضت لهذا الهجوم الكثير وأرسلت كنائسها كنوزها ونفائسها إلى العاصمة أو إلى الكنائس الأخرى على الشاطىء الآسيوى للبوسفور ، واستدعى جستنيان قائده بليزاريوس الذى تمكن من إلحاق الهزيمة بهذه الفرق الثلاث ، ولكن رغم ذلك فإن أقاليم تراقيا ومقدونيا وتساليا قد لقيت الكثير من التخريب وما ترتب على ذلك من مشاكل إقتصادية(١) .

---

(١) أنظر تفاصيل هجمات هذه العناصر على بلاد الامبراطورية فى البلقان فى المصدر التالى :

Agathias : Historiae, Ed. Nieluhr, 1828, pp. 331 — 333.

واجع كذلك

Bury : op cit, vol 2, pp. 30 — 308.
Vasiliev ‘ op. cit. I, p. 140.

الفصل الثالث

الإدارة والتجارة في عصر جستنيان

- اهتمام جستنيان بالنواحى الإدارية .
- جهود جستنيان لتبسيط النظم الإدارية .
- كبار الملاك وخطرهم على الحكومة .
- موقع القسطنطينية كوسيط تجارى بين الشرق والغرب .
- مشكلة استيراد الحرير من الصين وكيفية التغلب عليها .
- أهم صادرات الإمبراطورية فى عصر جستنيان .

لقد أولى جستنيان اهتماماً كبيراً للنواحي الإدارية فى الإمبراطورية ، وكان يرى أن عليه أن يقوم بإصلاحات إدارية ضخمة ، لأنها من واجبات الإمبراطور تجاه الرعية من جهة ، ومن جهة أخرى للتقرب من الله الذى حباه بفضله وعطفه .

وقد رأى جستنيان أن واجب الموظفين الإداريين ودافعى الضرائب يتمثل فى أنه ينبغى أن يكون الموظفون أمناء ، تعف أيديهم عن تناول الرشوة

وأن يراعوا دخل الحكومة ، ويعملوا على زيادة هذا الدخل . أما واجب دافعى الضرائب فهو أن يؤدوا ما هو مقرر عليهم من ضرائب كاملة ، عن طيب خاطر وبانتظام . وهكذا أصبح جستنيان حامياً لحقوق الخزينة الإمبراطورية ، وفى نفس الوقت المدافع عن رعاياه ضد ظلم الموظفين وابتزازهم أموالهم .

وقد حرص على أن يضمن مرسوماته هذه المبادىء الأساسية التى قامت عليها إصلاحاته الإدارية(١) .

وقد وضع جستنيان على رأس الجهاز الإدارى ، يوحنا القبدوقى John The Cappadocian الذى عمل على توفير المال اللازم لجستنيان لتنفيذ مشروعاته الواسعة ، فاستحدث ضرائب جديدة منها على سبيل المثال الضريبة المسماة أيريكون Aerikon ، والتى جلبت لخزينة الإمبراطورية ثلاثة آلاف رطل من الذهب(٢) . وقد أثار تفنن يوحنا القبدوقى فى

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 159

(2) Runciman : The Byzantine Civilisation, p. 98.

ابتداع هذه الضرائب بغض الجماهير واستيائها ، بعد أن فاقت الضرائب المفروضة عليهم كل احتمال ، وكان أن ضاق به صدر الإمبراطورة ثيودورا فعزلته عن منصبه نهائياً وكان ذلك فى عام ٥٤١ م(١) ، كما سبق أن ذكرنا .

وقد عمل جستنيان على تبسيط الأمور الإدارية عن ذى قبل . فقد كان الإمبراطور قسطنطين الأكبر قد قسم الولايات الكبيرة إلى ولايتين أو أكثر ، وفصل السلطة الإدارية عن السلطة العسكرية فى كل ولاية ليتجنب حركات التمرد التى قد يقوم بها من يجمع فى يده السلطتين . لكن جستنيان قرر الجمع بين السلطتين الإدارية والعسكرية فى يد حاكم الولاية ، كما قلل عدد الولايات وأنقص عدد الموظفين وزاد فى رواتبهم حتى يكون ذلك دافعاً لهم على إتقان عملهم ، كما أنعم بلقب جستنيانى justiniani على حكام الولايات ليزيدهم فخراً ووقاراً(٢) .

ووجه جستنيان عناية خاصة لإدارة العاصمة ، فعين عدداً من الولاة أطلق على الواحد منهم لقب Praetorius أوكل إليهم شئون القضاء والسجون . وفى سنة ٥٣٩ م أنشأ وظيفة Quaestor الذى كان بمثابة الوكيل العام للشعب . فكان من اختصاصه ختم الوصايا وفضها وتولى تنفيذها والإشراف على إدارة أملاك القصر والنظر فى قضايا التزوير . كذلك كان عليه أن يجد عملا لكل عاطل قادر على العمل ، ومراقبة الذين يفدون على العاصمة من أبناء الولايات بلا موجب فيعقدون مشاكلها بتصرفاتهم(٣) .

---

(1) Runciman : op. cit., p. 38.

(٢) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(3) Runciman : Byzantine Civilization, p. 50.

أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ١٧٥ .

وكان أخطر أعداء الدولة فى الداخل هم طبقة كبار الملاك ، الذين اغتصبوا أملاك الدولة ، وأسكتوا كل من يلومهم ببذل الأموال . وقد انصرف هؤلاء لمباشرة شئون ضياعهم وأغفلوا شأن الحكومة المركزية وأحاطوا أنفسهم بالحرس الخاص ، وتبعهم عدد كبير من الرعاع الذين لم يتورعوا عن اختلاس كل ما تصل إليه أيديهم(١) .

وكان هؤلاء الملاك الكبار بصفة خاصة فى آسيا الصغرى ومصر ، وأشهرهم أسرة أبيون Apion وهى أسرة مصرية حازت قرى بأكملها فى جهات مختلفة بمصر . وانخرط فى خدمة رب الأسرة عدد كبير من الكتاب ونظار الضياع وحشود الفلاحين . ومن يقومون بتقدير الضرائب وجبايتها ، وله شرطته الخاصة وكذلك البريد . وله جيشاً خاصاً ، وسجوناً يلقى بها من يجترىء على سلطانه . يضاف إلى ذلك ما حازته الكنائس والأديرة من ممتلكات تمتع أصحابها بسلطان واسع .

ورأت حكومة جستنيان أن هذا كله تحدياً لسلطانها ، فقاومته مقاومة طويلة الأمد . تذرعت أثناءها بشتى الوسائل ، كأن تتدخل فى حق الإرث ، أو أن تكره بعض كبار الملاك على وقف أملاكهم على الإمبراطور ، أو أن تصادر بعض الأملاك بحجة عدم وجود الدليل على ملكيتها ، أو أن تتهم ديراً من الأديرة بالزندقة وتصادر ممتلكاته وتحولها إلى الدولة ، ورغم ذلك كله فلم يتمكن جستنيان من القضاء على هذه الطبقة(٢) .

---

(1) Vasiliev : History of The Byzantine Empire, vol. I, p. 158.
(2) Boak : Byzantine Imperialism, in Egypt Amercan Historical Review, XXXIV, 1928, p.6.

وقد بذل جستنيان جهوداً كبيرة من أجل المحافظة على الطرق والجسور ، وتوفير المياه والمحافظة على الأسوار ، وقد حث ولاته دائماً على الاهتمام بهذه الأمور . وقد أنشئت مدن جديدة فى أنحاء متفرقة اتخذت اسم « جستنيانة » نسبة للإمبراطور . ولم يدخر جستنيان جهداً فى بناء الحمامات ودور اللهو والساحات العامة . وبناء على رغبة ثيودورا أعاد تنظيم وظيفة المحافظين على الآداب العامة وأمرهم بالتشديد على المغامرين وسيئى السلوك ، واهتمت ثيودورا بأمر الساقطات فجعلت من قصر قديم على ضفة البوسفور الآسيوية ديراً للتائبات منهن أسمته « دير التوبة » ، كما اهتمت كذلك بإقامة المستشفيات للمرضى وأماكن الراحة للمسافرين (١) .

= Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 158.

أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٧٢ — ١٧٣ .

العرينى : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٧٢ — ٧٤ .

(١) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٧٥ — ١٧٦ .

التجـــــــــــــارة

يقول المؤرخ رانسيمان : إن القرن السادس يعتبر من أعظم عهود تجارة الشرق(١) .

ولا شك أن ذلك يرجع لجهود جستنيان فى ميدان التجارة من ناحية ، ولموقع القسطنطينية من الناحية الأخرى . فقد كان موقع هذه المدينة منذ إنشائها على يد الإمبراطور قسطنطين وحتى آخر عهد الإمبراطورية البيزنطية . موقعاً تجارياً فريداً ، فهى تقع عند نقطة التقاء قارتى آسيا وأوروبا ، والمعروف أنه يفصل أوروبا عن جنوب غربى آسيا ، متسعان من الماء هما : البحر الأسود وبحر إيجة . على أن تراقيا تبرز بين البحرين لتلتقى بآسيا الصغرى لا يفصل بينهما سوى مضيقان هما : البوسفور والهللسبونت (الدردنيل) وبينهما بحر مرمرة المغلق الذى تحوطه الأرض من جميع الجهات . وقد أتاح هذا الموقع الفريد لبيزنطة التحكم فى حركة التجارة المتنقلة بين البحر الأسود وبحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط ، كذلك التجارة بين أوروبا وآسيا الصغرى(٢) .

وكان موقع القسطنطينية هذا يعود عليها بالثراء والرخاء . ذلك أن نسبة تعادل عشرة فى المائة من ثمن البضائع كانت تفرض كرسوم على جميع الصادرات والواردات ، وكانت ضريبة الصادرات تدفع فى القسطنطينية ،

---

(1) Runciman : Byzantine Civilisation, p. 164.

(2) Runciman : pp. 11 — 12.
Moss, H. : The Formation of the East Roman Empire, (330 — 717,) C.M.H. vol.IV, part,1,0.p. 41.

أما الرسوم على الواردات فكانت تجمع عند أبيدوس على مضيق الهللسبونت ، أو عند هيرون على مضيق البوسفور . ولم يكن يجوز لأية سفينة أن تعبر المضايق دون دفع الرسوم المستحقة عليها ، وكان ذلك يمد الخزينة الإمبراطورية بفيض من الثروة(١) .

ولم تكن حركة العبور التجارى لبلاد الغرب الفقيرة هى التى تستفيد منها الإمبراطورية بدرجة كبيرة . ولكن تجارتها مع الشرق ، مع الصين والهند هى التى كان لها الاعتبار الأول والأهم . وكانت صادرات الإمبراطورية من البضائع والكماليات الغالية الثمن من مصانعها فى سورية . وكانت الصادرات لا تتوازن مع الواردات من بلاد الشرق وخاصة الحرير . الذى إزداد الإقبال عليه بصورة مضطردة مع إزدياد أسباب الترف . وأصبح لبس ثياب الحرير الخالص فى هذا العصر مألوفاً فى الحياة المنزلية . كما أخذت الكنيسة ترحب بهدايا من هذه المادة الثمينة لاستعمالها فى ملابس رجال الدين والستر والأغطية وتزيين المذابح . بعد أن كانت ترفض فى أول الأمر استخدام الحرير فى الأغراض الدينية . كذلك احتكرت الدولة صنع أشكال معينه من ثياب الحرير كانت تلبس فى مراسم البلاط(٢) .

على أن الإمبراطورية البيزنطية كابدت الكثير فى سبيل نقل الحرير من الصين . حيث إن الطريق البرى إلى الصين كان يمر عبر الأراضى الفارسية . كما أن الطريق البحرى عبر المحيط الهندى كان يسيطر عليه كذلك التجار

---

(1) Runciman : Byzantine Civilisation, p. 170.
Bury : Eastern Roman Empire, pp. 217 — 219.

(2) Ostrgorsky : History of the Byzantine State, p. 74.
بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٧٦ .

الفرس الذين يبحرون من الخليج الفارسى إلى سيلان حيث تتجمع البضائع الآتية من الصين . لذلك كان نشاط الحركة التجارية بين الإمبراطورية البيزنطية والصين أو كساد هذه الحركة يتوقف على العلاقات مع فارس ، حتى إن تجارة الحرير كانت تتوقف تماماً فى فترات الحرب بين الطرفين(١) .

لذلك حاول جستنيان أن يستبدل هذا الطريق بطريق آخر غير مباشر عبر إقليمى لازيقا والقوقاز . حيث إرتبطت بيزنطة بعلاقات طيبة مع شعوب السهول فى شمال البحر الأسود ، لذلك أجرت بيزنطة اتصالات مع الأتراك الذين كانوا يسيطرون على منطقة شمال القوقاز والذين عانوا هم الآخرون من جراء سيطرة الفرس على تجارة الحرير . كما حاول جستنيان كذلك استخدام طريق البحر الأحمر للوصول إلى الهند ، ومن أجل ذلك أقام علاقات ودية مع المملكة الأثيوبية Axum .

لكن هذين الطريقين لم يقدر لهما النجاح ، إذ أن الطريق البرى عبر وسط آسيا كان طريقاً صعباً وخطراً . وبالنسبة للطريق البحرى ، لم يتمكن لا التجار الأثيوبيون ولا التجار البيزنطيون من كسر سيطرة الفرس على المحيط الهندى . وظل الفرس يتحكمون فى طريق التجارة إلى الصين ويسيطرون عليه (٢) .

على أية حال ، فقد انتهت متاعب بيزنطة بالنسبة لحصولها على الحرير ، بعد اكتشافها لسر دودة القز فى حوالى ٥٥٢ أو سنة ٥٥٤ ، حين وصل

(1) Ostrogorsky : p. 74.
(2) Ostrogorsky : pp. 74-75.

إلى القسطنطينية راهبان نسطوريان يحملان فى عكازيهما دودة القز وبيضها ، وبدأت أشجار التوت تزرع فى سورية ، ونمت صناعة الحرير سريعاً ، وتركزت مصانعه فى القسطنطينية وأنطاكية وبيروت ، وكانت هذه البضائع إحتكاراً للإمبراطورية واستخدمت بها الآلاف من العمال . ورغم أن الطريق بين بيزنطة والصين أصبح ميسراً بعد عقد الصلح مع الفرس إلا أن بيزنطة أصبحت فى حالة اكتفاء ذاتى(١) .

وقد ترتب على استرجاع جستنيان لولاية شمال إفريقية سنة ٥٣٤ م انتعاش كبير فى تجارتها . وبذل هذا الإمبراطور جهده فى سبيل تشجيع التجارة بين موانيه الشرقية وبلاد شمال إفريقية وإيطاليا . وكانت سورية - التى تعتبر من أخصب بلاد العالم آنذاك - تصدر الحرير والخمور من غزة وعسقلان . والزجاج من صيدا ، وبضائع أخرى متقنة الصنع من صور وبيروت . أما مصر ، فكانت تصدر ورق البردى والبهارات التى تصلها من بلاد الشرق الأقصى (٢) .

وهكذا نهض جستنيان بالتجارة نهضة كبرى كان لها أثرها فى الانتعاش الإقتصادى الذى تمتعت به الإمبراطورية وعلى الأخص فى الفترة المبكرة من عصر هذا الإمبراطور .

---

(١) Bury : Later Roman Empire, vol. II, p. 330.

بينز : الأمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) بينز : الأمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٨٣ .

الفصل الرابع

جستنيان والاستبداد القيصري البابوي

- جستنيان إمبراطوراً وبابا .
- محاولة التوفيق بين السلطتين الزمنية والروحية .
- أولوية كنيسة روما على باقي الكنائس بالإمبراطورية .
- الخلاف بين أصحاب مذهبي الطبيعة الواحدة والطبيعتين .
- اهتمام جستنيان بتشييد الكنائس .

إذا استعرضنا تاريخ العلاقات بين الكنيسة والدولة نجد أن عصر جستنيان يمثل ذروة تدخل النفوذ الإمبراطورى فى شئون الكنيسة ، وليس هناك إمبراطور من الذين سبقوه أو جاءوا بعده — كما يقول المؤرخ استروجورسكى — كان له مثل سلطته المطلقة على الكنيسة(١) .

فقد كان جستنيان الحاكم المسيحى المشبع بالإحساس بالمصدر الإلهى لسلطته الإمبراطورية . فهو الرجل المنتخب بفضل العناية الإلهية ليحكم المجتمع المسيحى(٢) .

وهكذا أصبح جستنيان رئيساً للدولة ورئيساً للكنيسة فى آن واحد ، وهو ما يطلق عليه اسم الاستبداد القيصرى البابوى Caesaro-Papism أى إنه إمبراطور وبابا فى نفس الوقت ، فهو يجمع فى شخصه السلطتين : الزمنية والروحية(٣) .

وكان من رأيه أن انتظام أحوال الكنيسة هو دعامة الملك ، لذلك فقد ضم الكنيسة داخل إطار عمل الدولة ، والمقصود هو أنها تصبح كنيسة الدولة State Chruch ليس فقط تحت الحماية الخاصة للدولة ، بل تخضع لإدارتها ، وذلك لأن أهداف كل منهما مماثلة ، فكلاهما تستميل

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 77.

(2) Herman : The Secular Church, C.M.H. vol. IV, Part II, p. 104.
Ensslin : The Government and Administration of the Byzantine Empire, C.M.H., vol. IV, part II, p. 2.

(3) Herman : The Secular Church, p. 105.
Diehl : justinian, The Imperial Restoration in The west, in C.H.M. ed. Bury, vol 2, p. 5.

العالم من أجل المسيح ، فالعالم المسيحى Oikoumene بالنسبة له مثل إحياء السيادة الرومانية(١) Imperium Romanum .

لذلك كان جستنيان حريصاً على إقرار الوفاق بين السلطتين ، وقد أوضح هدفه هذا فى أحد قوانينه الجديدة(٢) الذى صدر فى ٩ مارس ٥٣٥ بقوله :

"Maxima quidem in hominibus sunt dona dei a Superna collata clementia sacerdotium et imperium, illud quidem divinis ministrans hoc autem humanis praesidens ac diligentiam exhibens - ex uno eodemque principio utraque procedentia humanam exornant vitam Ideoque nihil sic erit studiosum imperatoribus, sicut sacerdotum honestas, cum utique et pro illis ipsis semper deo supplicent.".

« هبات الله العظمى للرجال نتجت من كرمه المطلق ، الهيئة الكهنوتية ، والسلطة العلمانية ، الأولى تخدم المصالح الإلهية . والثانية تخدم مصالح البشر وتسهر عليهم . كلاهما أتت من نفس المصدر لتكمل الحياة البشرية . لذلك لا شيء يسترعى اهتمام الإمبراطور أكثر من كرامة رجال الدين ، بعد هذه الصلاة المستمرة من أجلهم .

إذا كان رجال الدين وثقوا تماماً فى الله ، وإذا الإمبراطور حكم الدولة المعهود إليه بها ، بالعدل والشرف ، فإن الوفاق المتبادل ، سوف ينشأ ليؤكد وحدة المنافع للجنس البشرى . وبناء على ذلك فإن عقيدة الله الصحيحة وشرف رجال الدين ، هما فى المحل الأول من اهتمامنا » .

---

(1) Herman : The Secular Chruch, p. 104.
Ostrogorsky : p. 77.

(2) Novellae, no. 6, ed. Zachariae von Lingenthal, Jus graeco romanum.

وكان جستنيان شديد الإيمان بكنيسة واحدة جامعة . لذلك كان من البداية حريصاً على أن يوطد علاقاته بكنيسة روما . وقد اعترف جستنيان صراحة بما لكرسي روما من سلطة عليا على باقى الكنائس فى إمبراطوريته ، ففى خطابه إلى البابا يوحنا الثانى ، جعل من كنيسة روما :

Caput Omnium Sanctarum ecclesiarum

« رأس كل الكنائس المقدسة » .

وفى ديباجة أحد قوانينه الجديدة(١) الذى صدر فى مايو ٥٣٥ ، أفصح عن مكانة روما فى نظره فى الكلمات التالية : « روما القديمة تمتعت بشرف كونها أم القانون ، وبلا شك هى مقر البابا الأسمى ، لهذه الأسباب نرى كذلك أنه من الضرورى أن نشرف مهد القانون ، ومنبع اللاهوت بقانون خاص بإرادتنا المقدسة » .

أما أسقف روما ، فقد أوضح جستنيان مكانته بالنسبة لباقى رجال الدين فى هذا المرسوم(٢) الذى صدر فى سنة ٥٤٥ وجاء به ما يلى : « نعلن أن البابا المقدس لأبرشية روما يكون له الأولوية على كل رجال الدين ، ومطرانية القسطنطينية — روما الجديدة — المباركة تكون فى المرتبة الثانية بعد الإبرشية الرسولية المقدسة روما ، بأسبقيتها على كل الإبرشيات الأخرى » .

كما أوضح أن الأباطرة يجب أن يخاطبوا أسقف روما كما لو كان « أباهم الروحى » ، وكان هو يخاطب أسقف روما على أنه « البابا » و« البابا

---

(1) Novellae, no. 9, ed. Zachariae, Jus graeco romanum.
(2) Novellae, no. 131, ed. Zachariae, Jus graeco romanum.

البطريرك » و « الأب الرسولى » . وقد قصر لقب البابا على أسقف روما فقط(١) .

ولكن رغم هذا كله ، فلم يكن لدى جستنيان أية نية للإضرار بحقوق الإمبراطور فى حكم المجتمع المسيحى ، فقد بقى هو السيد الأعلى ، الأمر الذى منحه العديد من الامتيازات الدينية ، فهو الذى يعقد المجامع ، ويرأسها بشخصه أو عن طريق أحد نوابه ، ويشترك فيما يجرى فيها من مناقشات لاهوتية ، وهو الذى يجيز القرارات وينشرها فى شكل مرسوم رسمى ، ولديه نفوذ قوى لاختيار البطاركة ، ورؤساء الأساقفة ، والأساقفة . وهو الذى يؤلف تراتيل الكنيسة . وينشىء الإبرشيات ، ويعين فيها المطارنة ، ولكن فى الأمور الدينية البحتة ، يترك الكلمة الأخيرة لأسقف روما(٢) .

وقد ارتضى بابوات روما هذه السياسة الدينية لجستنيان ووافقوا عليها وأقام البابا فيجيليوس Vigilius صلاة الشكر للمسيح ، الذى وهب جستنيان « ليس فقط روح إمبراطورية ، ولكن إكليركية كذلك(٣) . »

ومع إعتقاد جستنيان فى هذا المبدأ ، مبدأ سمو كنيسة روما ، لم يكن غريباً أن يعمد إلى إزالة الخلاف بين كنيسة روما والكنائس الشرقية ، على أن تحقيق وحدة الكنيسة بين الغرب والشرق ، بين روما والإسكندرية وأنطاكية ، كان يعتبر أمراً مستحيلا . كما أن الخلاف حول تفسير طبيعة

---

(1) Herman : The Secular Church, p. 105.
Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 149.

(2) Herman : op. cit. p. 105.
Vasiliev : op. cit. p. 149.

(3) Dvornik : Constantinople and Rome, C.M.H., vol. IV, Part I, p. 437.

المسيح زاد من اتساع الفجوة بين الكنائس الشرقية والغربية ، والواقع أنه منذ القرن الخامس الميلادى ، والجدل يشتد حول مسألة الطبيعة الواحدة ، والطبيعة المزدوجة للسيد المسيح(١) .

وقد ساد مذهب الطبيعة الواحدة monophysite فى الأقاليم الشرقية، وخاصة فى مصر والشام وفلسطين ، وكانت الإمبراطورة ثيودورا نفسها تدين بهذا المذهب ، ولذلك حظى المونوفيزنيون بتأييدها ، أما جستنيان فإنه كان يدين بمذهب الطبيعتين ، كما سبق أن ذكرنا .

وهكذا كانت الولايات الشرقية تشتمل على عدد كبير من أصحاب الطبيعة الواحدة ، وكان إرضاؤهم يغضب كنيسة روما ، وإرضاؤها يغضبهم ، ومن ثمة وجد جستنيان نفسه بين شرين ، شر الإبتعاد عن روما وعن الكنيسة الارثوذكسية ، وشر مناوأة الولايات الشرقية له واستعدادها للإنفصال عنه . وقد اعتبر المؤرخ فازيلييف أن لحكومة جستنيان وجهين : أحدهما يطل على روما يلتمس منها التوجيه ، والآخر يطل على الشرق يلتمس الحقيقة من رهبان مصر والشام(٢) .

وبتأثير من ثيودورا ، وحرصاً على كسب ولاء الولايات الشرقية حاول جستنيان جاهداً أن يمسك العصا من الوسط ، وأن يضع حلولا يرضى بها أصحاب الطبيعة الواحدة ، وفى نفس الوقت لا يحيد بها عن أرثوذكسيته . ورغم محاولات جستنيان لكسب مشاعر المونوفيزتيون . ومنحهم قدراً محموداً من التسامح ، إلا أنه فشل فى كسب ودهم وظل

---

(1) Bury : op. cit. vol. I, pp. 357 — 358.

فيشر : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ص ٥٦ — ٥٧ .

(2) Vasiliev : op. cit., pp. 148 — 149.

ولاؤهم نحو حكومة القسطنطينية يضعف تدريجياً ، ولا سيما فى مصر والشام ، وكان ذلك مما مهد للفتوح الإسلامية(١) .

ولحرص جستنيان على توحيد العقيدة الدينية فى إمبراطوريته ، فإنه لم يتسامح مع أصحاب الديانات الأخرى ، وتعرضوا أثناء حكمه لحركات اضطهاد عنيفة فقد اصطدم جستنيان بالوثنيين واليهود والمراطقة ، وحتى يتخلص من بقايا الوثنية قام جستنيان بإغلاق جامعة أثينا التى كان الوثنيون ينظرون إليها على أنها معقلهم الرئيسى ، والتى كانت تمثل آخر معقل للوثنية ، كما نفى عدد كبير من أساتذتها وصادر ممتلكاتهم(٢) .

وقد عنى جستنيان ببناء الكنائس فى إمبراطوريته لتمجيد العقيدة الأرثوذكسية ، ومنها كنيسة سانت فيتالى St. Vitaly برافنا ، التى زخرت بحوائط الفسيفساء البراقة ، وكنيسة آيا صوفيا Hagia Sophia التى بناها لتخليد اسمه على مر العصور ، وحتى تكون مركزاً دينياً ظاهراً ، والتى تعتبر قمة فن العمارة البيزنطى . وقد بناها جستنيان فى عام ٥٣٢ م . فى القسطنطينية تحت إشراف أزيدور الملطى Asidore of Miletus وأنثيموس الترللى Anthemius of Tralles ، واستمر العمل فيها خمس سنوات . واستعانا فى بنائها بخبرة الصناع من جميع أنحاء الإمبراطورية ، بلغ عددهم ألف صانع وانتهى بناؤها فى ٥٣٧ م ، فجاءت تحفة رائعة وخاصة قبتها التى تحدت بأسرار صنعها عباقرة المهندسين(٣) .

---

(1) Vasiliev : op. cit., pp. 150 — 151.
(2) Vasiliev : op. cit., vol. I, p. 150.
(3) Grabar, A. : Byzantine Architecture and Art, C.M.H., vol. IV. Part II, pp. 316 — 317.

راجع كذلك الصورتين رقم ٣ ، ٤ لكنيسة آيا صوفيا .

وقد أصدر جستنيان مرسوماً إمبراطورياً فى عام ٥٣٥ م حدد فيه عدد رجال الدين القائمين بالخدمة فيها وكان عددهم ٦٠ قساً ، ١٠٠ شماساً ، ٤٠ رئيس شمامسة ، ٩٠ شماساً ، ١١٠ مقرئاً ، ٤٠ مرتلا(١) .

Wellesz, E. : Byzantine Music and Liturgy, C.M.H., Part II, p. 141. (2)

الفصل الخامس

جستنيان المشرع الأعلى

- الدوافع التي حدت بجستنيان لإصلاحاته التشريعية .
- مجموعة قوانين جستنيان :

الموجز .

الشرائع .

المتجددات .

- جامعات القانون وطرق ومناهج التدريس بها .

كان جستنيان يعتقد أن إمبراطور الدولة يحمل عبء واجباً مزدوجاً فقد كان عليه أن يكون الفاتح العسكرى ، وفى نفس الوقت المشرع الأعلى .

وقد وجد جستنيان أن الغموض والتناقض قد تسربا إلى نصوص القانون الرومانى ، وأخذت القضايا أمام المحاكم تؤجل إلى ما لا نهاية ، وكانت الأحكام لا تعتمد على مواد ثابتة بقدر اعتمادها على أهواء القضاة التعسفية(١) .

ولم يكن هناك مفر — والحالة هذه — من القيام بعمل حصر كامل للقانون الرومانى . وقد عهد جستنيان إلى وزير القضاء تريبونيان مهمة رئاسة لجنة لجمع القوانين التى أصدرها أباطرة الرومان ، وتنسيقها وحذف المتشابه منها ، واستخلاص مجموعة قانونية واحدة ، وقد كون تريبونيان لجنة من عشرة أشخاص من المتخصصين كان من بينهم ثيوفيلوس ... Theophilus أستاذ القانون بجامعة القسطنطينية ، وقامت اللجنة بمراجعة المجموعات القانونية الثلاث السابقة :

Codex gregorianus. Codex Hermogenianus. Codex Theodosianus

واستبعدت منها كل ما هو غير مقبول ، كما قامت بتنظيم القوانين التى أصدرها الأباطرة بعد عصر ثيودوسيوس . وفى أوائل أبريل ٥٢٩ م صدرت نتائج كل هذه الأعمال فى مجموعة جستنيان . Codex justiàmus التى تألفت من عشرة كتب ، اشتملت على كل ما صدر من القوانين منذ زمن الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٨) إلى زمن جستنيان ، وأصبحت المجموعة الرسمية الوحيدة للقوانين بالإمبراطورية(٢) .

---

(١) بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٥ .

(2) Roly H. : Roman Law, in C.M.H. ed Bury vol II, p. 59.

وفى سنة ٥٣٠ م تلقى تريبونيان أو امر الإمبراطور للقيام بعمل جديد ، فألف لجنة من ستة عشر مختصاً ، كانت مهمتها مراجعة كل المؤلفات وأن تحذف ما تجده من النصوص المتناقضة أو المكررة ، وكذلك حذف المناقشات التى دارت حول بعض الموضوعات ، ثم تقوم بترتيب ما جرى جمعه من المواد القانونية وفقاً لنظام معين .

وقد استلزم الاضطلاع بهذه المهمة أن تقوم اللجنة بقراءة ألفى كتاب اشتملت على ثلاثة ملايين من السطور وتلخيصها . ولم تكن هذه المهمة الضخمة كما رآها جستنيان نفسه ، إلا ضرباً من المستحيل لا يتحقق إلا بعون من الله . وقد قدر لإتمام هذا العمل عشر سنوات ، ولكنه فى الحقيقة تم فى حوالى ثلاث سنوات فقط ، ونشر فى ديسمبر عام ٥٣٣ . وهذه المجموعة الجديدة انقسمت إلى خمسين كتاباً شملت ١٥٠,٠٠٠ سطراً ، واتخذت اسم الموجز Digestum أو Pendectae . ووصفها جستنيان بقوله إنها « معبد مقدس للعدالة الرومانية »(١) .

على أنه نتيجة للسرعة التى اقترنت بهذا العمل ، أن جاءت هذه المجموعة خالية من الوحدة والترابط . كما أن التفويض الذى حصلت عليه اللجنة باختصار النصوص وتفسيرها ، واستخلاص نص واحد من نصوص عديدة ، كل ذلك أدى فى بعض الأحيان إلى بتر النصوص القديمة . ورغم ذلك فإن لهذه المجموعة أهمية عظيمة القيمة ، إذ حفظت للأجيال التالية من المواد

— Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 143.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 75.
Bury : Later Roman Empire, vol. II, p. 396.

(1) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 144.
بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٧ .

المستمدة من القانون الرومانى ما لم يكن معروفاً(١) .

وقد أدرك جستنيان أنه ليس بوسع كل الناس أن يستوعبوا هذه المادة الضخمة من المعلومات التى يمثلها القانون والموجز ، فليس بوسع كل الشباب المبتدىء فى دراسة القانون أن يلموا بمحتويات هذين المصنفين الضخمين ، لذلك قام تريبونيان ومساعداه ثيوفيلوس ودروثيوس Drothius الأستاذ بجامعة بيروت ، بإعداد ملخص فى القانون المدنى صدر فى عام ٥٣٣م ، وهو يشتمل على أربعة كتب معروفة باسم الشرائع Institutiones (٢) وفى المرسوم الإمبراطورى الذى صدر بخصوص هذه الشرائع كتب الإمبراطور أنه يقدمها «للشباب المتلهف على معرفة القانون» Cupidae legum Juventuti

وما صدر من مرسومات إمبراطورية بعد عام ٥٣٤ م جمعت وأصبحت تعرف باسم المتجددات Novellae Leges . والعـدد الأكبر من هذه القوانين صدر باللغة اليونانية ، على حين أن القانون والموجز والشرائع صدرت باللغة اللاتينية . ومعنى ذلك استجابة جستنيان ، هذا الإمبراطور المتشبع بالتقاليد الرومانية لواقع الحياة العملية ، حيث تسود اللغة اليونانية . والدليل على ذلك ما جاء فى أحد هذه القوانين الجديدة ، حيث قال جستنيان : «إننا لم نكتب هذا المرسوم باللغة القومية ، ولكن باليونانية المستعملة ؛ لكى يصبح معروفاً للجميع ، بسبب سهولة فهمه »(٣) .

وقد كان جستنيان عملياً فى تشريعاته ، وحرص على مراعاة النواحى

(1) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 144.

أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ١٧٩ .
بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٧ .

(2) Vasiliev. pp. 144 — 145.

(3) Agathias : Historiarum, p. 281.
Vasiliev : vol, I. p. 145.

الإنسانية ، وكان رائدة فى أعماله هذه « الإنسانية ، وصواب التفكير ، والمنفعة العامة » . وبناء على ذلك فقد ألغى القانون المعروف باسم ... Noxae deditio الذى بمقتضاه كان يحق للآباء أن يبيعوا أبناءهم كرقيق لأى شخص على سبيل التعويض عن ضرر أو أذى ألحقوه به وعلل جستنيان هذا الإلغاء بقوله : إنه « بناء على الرأى العادل للمجتمع العصرى ، يجب أن ننبذ القسوة التى من هذا النوع »(١) .

ووجدت فى عصر جستنيان طبقة ذات أهمية ضئيلة ، تلك هى الطبقة التى كان لها مكاناً وسطاً بين طبقتى الأحرار والعبيد ، فهى أقل من الأحرار ولكنها أعلى من العبيد وكانت تضم ثلاث فئات :

الفئة الأولى ويسمون : latini Iuniani

وهم العبيد الذين تم تحريرهم أو عتقهم ، لكنهم لم يصبحوا أحراراً يتمتعون بكل ما للأحرار من حقوق ، فكانوا لا حق لهم فى التعيين فى وظيفة حكومية أو الزواج من طبقة الأحرار كما أنهم لا يملكون الحق فى كتابة وصية أو الميراث عن طريق وصية .

والفئة الثانية هم : In mancipii Causa

وهم الأطفال الذين أخضعهم أباؤهم للعبودية نتيجة بعض المخالفات التى اقترفوها .

أما الفئة الثالثة فتدعى : Dediticii

وهم الذين خضعوا لعقوبة الرق نتيجة لارتكابهم جريمة ما ، وبعد

---

(1) Runciman : Byzantine Givilisation, p. 76.

بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

ذلك تم تحريرهم . لكن نظراً لأنهم القديم ظلوا لا يتمتعون بكل حقوق المواطنين الأحرار ، ولا يستطيعون أن يقيموا إلا على بعد أكثر من مائة ميل من مدينة روما . وإلى جانب هؤلاء كان هناك طبقة المحررين Freedmen وهم الذين تم تحريرهم ولكنهم ظلوا مقيدين بالالتزامات التى كانوا يدينون بها سابقاً . ولم يكن باستطاعة أحد منهم أن يصبح Magistrate or Senator إلا بأمر خاص من الإمبراطور ، كذلك لم يكن أحد منهم يستطيع أن يتزوج من سيده تنتمى إلى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ .

وقد ألغى الإمبراطور جستنيان هذا كله ، وأصبح هناك من وجهة نظر القانون طبقتان فقط هما طبقة الأحرار وطبقة العبيد(١) .

وقد ظهر تأثير الإمبراطورة ثيودورا فى النواحى التشريعية فى تلك الحقوق التى منحها جستنيان للمرأة ، مثل حق الزوجة فى الحصول من زوجها على أملاك تعادل فى قيمتها بائنتها وحق الأرملة فى الوصاية على أطفالها ، وتقررت للأطفال حرية أوسع فيما يتصل بأشخاصهم وأملاكهم . وأصبح حرمانهم من الإرث فى المستقبل غير جائز آلا حسب قواعد ثابتة . ونص على أنه فى حالة حرمانهم يجب على الآباء أن يقرروا صراحة وبوضوح تام الأسباب التى بنى عليها حرمانهم ، كما أعيد صياغة قانون الوراثة ، وأصبحت قرابة الدم أساساً له ، كذلك أمن العبيد من قسوة سادتهم ، ومنحوا الحق فى مطالبة الحكام بحمايتهم(٢) .

وللحفاظ على تلك الأعمال التشريعية العظيمة ، وجه جستنيان اهتمامه —

(1) Bury : History of the later Roman Empire, vol a, pp. 4C0 — 401.
Roby : Roman law, in C.M.H. ed Bury, vol II, pp. 64 — 65.
(2) Runciman : p. 76.
Vasiliev. : vol. I, p. 147

إلى جامعات القانون ، وأولاها عنايته ، وكان معظمها قد أغلق ، ونتيجة لجهوده ازدهرت ثلاث جامعات للقانون ، واحدة فى روما (مهد القانون) . والثانية فى القسطنطينية ، والثالثة فى بيروت(١) .

وكل جامعة من هذه الجامعات كان بها عدد محدود من أساتذة القانون لا يتجاوز أربعة ، وكان يطلق عليهم إسم Antecessores ، يتسلمون مكافآتهم من الحكومة ، ولهم الحق فى فتح فصول دراسية خارج الجامعة Public classrooms يلتحق بها من يريد دراسة القانون . وبخلاف أساتذة الجامعة كان هناك مدرسون يستقبلون فى منازلهم التلاميذ الراغبين فى دراسة القانون ، مقابل أجر معين يدفعه هؤلاء التلاميذ لأستاذهم(٢) .

وكانت دراسة القانون بعد سنة ٥٣٤ م ، تشتمل على ثلاثة فروع هى : القانون Codex ، الموجز Digestum ، والشرائع Institutiones . وكان التلاميذ يدرسون ٢٦ جزءاً فقط من الخمسين جزء لمجموعة الموجز مع أستاذهم ، أما الباقى فيدرسونه اعتماداً على أنفسهم .

وفى البداية كانت دراسة القانون تستغرق أربع سنوات ، وبعد سنة ٥٣٤ ، كانت خمس سنوات ، ثم أصبحت ست سنوات بعد سنة ٥٥٥ وذلك حتى يتمكن الطالب من دراسة أكبر عدد من القوانين الجديدة . Novellae (٣)

---

(1) Runciman : p. 76.
Vasiliev : vol. I, p. 147.

(2) Scheltema : Byzantine Law, C.M.H. ed. Hussey vol. IV, Part II, p. 56.

(٤) Scheltema : Byzantine Law, p. 56.

وكان نظام محاضرات القانون فى الجامعة بالنسبة للطلبة الذين يتكلمون اليونانية يتخذ شكل ترجمة يونانية للنص اللاتينى للقانون يطلق عليها اسم Index ،وفى المحاضرة التالية يقوم الأستاذ بشرح نفس النص اللاتينى ، وتتخذ هذه المحاضرة شكل أسئلة من جانب الطلبة ، وإجابات من جانب الأستاذ ، الغرض منها إيضاح النص اللاتينى وتفسيره . لذلك ظهرت تفسيرات هامة للقوانين ، مثل التفسير الذى كتبه ثيوفيلوس للشرائع ، وتفسيرات للموجز لثيوفيلوس ، ستيفانوس Stephanus ، ايزيدور Isidore وكوبيداس Cobidas . وشرح للقانون Codex كتبه إيزيدور(١) .

لكن الموقف تغير بعد سنة ٥٥٥ بظهور مجموعة القوانين الجديدة Novellae التى ظهرت باللغة اليونانية ، فإن الطلبة لم يعودوا فى حاجة إلى Index ، على أنه كان هناك بعض الطلبة الذين يتكلمون اللاتينية مما تطلب عمل Index لهم باللغة اللاتينية للقوانين الجديدة . وكان التفسير اللاتينى الوحيد لهذه القوانين هو الذى قام بعمله جوليان وظهر باسم مختصر القوانين الجديدة(٢) .

Epitome Novellarum

(1) Scheltema : Byzantine Law, pp. 56 — 57.
(2) Scheltema : Byzantine Law, p. 57.
والمزيد من المعلومات عن جهود جستنيان فى مجال التشريع فى مختلف المجالات راجع :
Roby : Roman Law, in C.M.H. ed Bury, vol 11, pp.53 — 108.

الفصل السادس

تقييم انجازات جستنيان

- أهمية جهود جستنيان فى مجال القانون .
- نتائج جهوده لتحقيق وحدة الكنيسة .
- تقييم سياسته الخارجية تجاه الغرب وفارس .
- المشاكل المالية والطبيعية التى واجهت جستنيان وأساءت للموقف .
- أهم نتائج هذا البحث .

بعد أن استعرضنا عصر هذا الإمبراطور وجهوده فى مختلف المجالات ، لعله أصبح من الواضح أنه لا يستحق هذا الوصف الذى وصفه به المؤرخ فيشر(١) ، بل نستطيع أن نقول إن الإنسان يقف مبهوراً أمام الإنجازات الضخمة التى حققها جستنيان للإمبراطورية البيزنطية ، والتى لا تزال آثارها باقية حتى اليوم لتؤكد للأجيال عظمة هذا الإمبراطور ، ومنها آيا صوفيا ، وأحواض « القصر الغائر »(٢) و « ألف عمود وعمود » فى استانبول ، وكنيستى سانت أبولينار St. Apollinare ، وسانت فيتالى Vitale فى رافنا .

أما عن الأثر الذى تركته جهوده فى مجال التشريع وترتيب القانون الرومانى ، فقد ظهر بشكل واضح بعد تأسيس معهد الدراسات القانونية بمدينة بولونيا فى شمال إيطاليا ، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، ومن ثمة أصبحت دراسة القانون الرومانى المدنى حسبما أصدره جستنيان دليلا واضحاً على أن ذلك المجتمع قد تولدت عنه أفكار ناضجة فى الملكية الخاصة والحقوق العائلية ونظرية العقد ، وأنه كان وثيق الصلة بالحياة الواقعية ، وأنه لم يبن على التشريع بقدر ما بنى على العرف والعادة وأقوال الفقهاء . وهكذا وجدت أوروبا الغربية ، حين انجابت عنها ظلمات العصور الوسطى ، وتكشفت لها مجموعة القانون المدنى الذى رتبه جستنيان ، أنها أمام بناء شامخ هو المدنية الأوروبية التى كانت والتى سوف تكون . على حد تعبير فيشر(٣) .

---

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث . ص١٧

(٢) أنظر الصورة رقم (٥) .

(٣) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ص ٥٥ — ٥٦ .

أما عن جهود جستنيان فى الناحية الدينية ، فقد رأينا كيف كان شغله الشاغل محاولة التوفيق بين كنيسة روما والكنائس الشرقية وإقامة كنيسة واحدة ، ولكن من الواجب أن نعترف أنه أخفق فى تحقيق وحدة الكنيسة داخل إمبراطوريته ، بعد أن ظل المونوفيزيتيون على عنادهم وتباعدهم . على أنه مما يعوض هذا الفشل ، ذلك النجاح الذى أحرزه فى مجال التبشير ، والذى كان من نتيجته نشر المسيحية بين القبائل والشعوب المجاورة ، فقد كان جستنيان يرى باعتباره إمبراطوراً مسيحياً أن واجبه يقتضى العمل على نشر المسيحية ليس فقط داخل إمبراطوريته ، وإنما خارجها كذلك ، ومن ثمة دأب على إرسال البعثات التبشيرية إلى المناطق التى لم تصل إليها المسيحية بعد ، وقد أثمرت جهوده فى هذا المجال ، وكان من نتيجتها تنصير قبائل الهرولى Heruli على الدانوب ، وبعض القبائل فى منطقة القوقاز ، وغيرها فى شمال إفريقية وفى حوض النيل الأوسط(١) .

وفيما يتعلق بحروبه فى الغرب ، فهل كانت ترفاً لا لزوم له ، وهل كانت من أجل تحقيق أطماعه الشخصية كما يرى بعض المؤرخين ؟(٢) .

إذا نحن نظرنا إليها فى ضوء المبادىء والمثالية الرومانية وجدنا أنها لم تكن كذلك ، فبانتهاء عهد رومولوس أو جسطولوس آخر أباطرة الغرب الرومان فى سنة ٤٧٦ م . انتهى « شبه الإنقسام » الذى كان موجوداً من قبل ، وظلت نظرية « الدولة الواحدة » قائمة دون تغيير ، وعادت الوحدة القديمة لشطرى الإمبراطورية إلى ما كانت عليه ، وانتقلت حقوق

---

(1) Vasiliev : The Byzantine Empire, vol. I, p. 141.

(٢) أنظر الفصل الأول من هذا البحث ص١٧.

الإمبراطور الغربى تلقائياً إلى الإمبراطور الشرقى ، الذى جمع السلطة الرومانية Imperium Romanum فى يده مرة أخرى(١) .

وفى ضوء هذه النظرية الرومانية ، أصبح من واجب الإمبراطور الشرقى أن يعمل جاهداً على إعادة ضم هذه الولايات الغربية للإمبراطورية من جديد ، على أن الأباطرة السابقين لجستنيان قد قنعوا وقتذاك بما لهم من سيطرة إسمية على هذه الأقاليم وبما اعترف لهم به زعماء البرابرة من نفوذ شكلى وفضلوا الكسل والتراخى — على حد تعبير جستنيان — ولو كان هؤلاء الأباطرة حاولوا استرجاع هذه الأقاليم منذ وقت مبكر ، فربما كانوا قد نجحوا فى إيقاف التيار الذى سار فيه الغرب الأوروبى مبتعداً به عن الشرق الهللينستى . ولما اتسعت الفجوة بين شطرى الإمبراطورية ، ولنجحت بيزنطة فى فرض سيطرتها الفعلية ونفوذها السياسى والحضارى على هذا الجزء من ممتلكاتها .

أضف إلى ذلك أن الإمبراطور الشرقى قد مارس منذ البداية الاستبداد القيصرى البابوى Caesaro — Papism ، بمعنى أنه كان رأساً للكنيسة كما هو رأساً للدولة . وبناء على ذلك أصبح واجبه الدينى يحتم عليه أن يخلص أهالى الولايات الغربية من يد الغزاة الأريوسيين ، وأن يعيد الأرثوذكسية إلى هذه البلاد ، وقد نظر هؤلاء الأهالى للإمبراطور الشرقى على أنه منقذهم ومخلصهم من هؤلاء السادة الكفرة .

وكان تخلى الإمبراطور الشرقى عن أداء واجبه السياسى والدينى تجاه الأقاليم الغربية للإمبراطورية يعتبر خيانة للمثالية الرومانية . وهكذا يتضح

(1) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 133.
Ostrogorsky : op. cit. p. 60.

أن إستعادة الأقاليم الغربية كان مسألة شديدة الأهمية بالنسبة لإمبراطور متشبع بالتقاليد والمثل الرومانية . وقد وجدت المثالية الرومانية فى شخص جستنيان المؤمن بها والمنفذ لها .

أما عن كون هذه الفتوحات الغربية لم تكن دائمة وأنها انهارت بعد وفاة جستنيان(١) ، فهذا يخالف الواقع ، ذلك أن إقليم شمال إفريقية استمر بيد الدولة البيزنطية لمدة تزيد على القرن من الزمان . وكان مركزاً للولاء الإمبراطورى ، وقد خرج منه هرقل فى عام ٦١٠ م لينقذ الإمبراطورية من الهوة التى غرقت فيها أثناء حكم فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠) ، ولم يسقط هذا الإقليم إلا أمام الفتح الإسلامى فى عام ٧١١ م . وبعد أن سقطت الولايات الشرقية نفسها فى يد المسلمين(٢) .

أما فى أسبانيا فقد ظل الإقليم الذى تم استرداده لها يدين بالولاء للإمبراطورية لمدة سبعين سنة(٣) .

وبالنسبة لإيطاليا ، فقد استمر الحكم البيزنطى والنفوذ الهللينستى فى الجنوب لمدة خمسة قرون تالية — أى حتى القرن الحادى عشر الميلادى — حين استولى النورمان فى عام ١٠٧١م على مدينة بارى آخر معقل للبيزنطيين هناك(٤) .

---

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث . ص١٧

(2) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 140 — 141.

(3) Vasiliev : op. cit, vol. I, p. 138.
Bury : Later Roman Empire, vol. II, p. 287.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 117.
Ostrogorsky : op. cit. p. 79.

وفيما يتعلق بسياسته على الجبهة الشرقية للإمبراطورية ، فقد لقيت الكثير من الانتقاد من جانب المؤرخين ، واتهموه بأنه أهمل الجبهة الشرقية « إهمالا شديداً » على حد تعبير المؤرخ ديل(١) .

والحقيقة أن جستنيان لم يوجه اهتماماً كافياً لهذه الجبهة ، رغم أهميتها الحيوية للإمبراطورية . ويبدو أن إيمانه بالمبادىء المثالية الرومانية الخاصة باستعادة الأقاليم الغربية ، وحرصه على تحقيقها ، جعلته ينظر إلى حروبه فى الغرب على أن لها الإعتبار الأول والأهم ، وربما قنع جستنيان آنذاك بأن الإمبراطورية البيزنطية قد حافظت على ممتلكاتها فى الشرق ولم تفقد شيئاً من أقاليمها هناك .

وقد كلفت جهود جستنيان فى مختلف المجالات — سواء فى ميدان الحرب أو الإنشاء والتعمير — الدولة الكثير من الجهد والمال ، خاصة وأن الضرائب المفروضة على الشعب لم تكن تصل إلى الخزينة الإمبراطورية ، ولم يصل إليها إلا الثلث فقط ، نتيجة لعدم أمانة الموظفين المكلفين بجمعها . وقد حاول جستنيان القضاء على هذه الظاهرة بإصداره العديد من المرسومات والقوانين ، غير أن جهوده كلها لم تأت بالنتيجة المرجوة ، لأنه لم يكن باستطاعة أحد أن يغير من الطبيعة البشرية لهؤلاء الموظفين .

ولما اشتدت حاجة الإمبراطور إلى المال لمواجهة نفقات الدولة وحماية حدودها من هجمات المتبربرين ، لجأ إلى استحداث ضرائب جديدة ، وما صحب جباية هذه الضرائب من إجراءات شديدة صارمة ترتب عليها أن

(1) Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, p. 8.
Ostrogorosky : History of the Byzantine State, p. 71.
Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 142.

أصاب القرى الخراب وهجرها سكانها ، وفقدت الأرض خصوبتها ، ونشبت الاضطرابات فى أماكن عديدة ، حتى اقتضى الأمر أن يفرض جستنيان الأحكام العرفية فى بعض الأقاليم(١) .

ثم ما عمد إليه جستنيان من محاولة توفير الأموال عن طريق تخفيض عدد الجيش والتوقف عن دفع مرتبات الجند ، كان له نتائج بالغة الخطورة ، إذ أدى ذلك إلى أن أصبحت حدود الإمبراطورية مكشوفة للأعداء وخاصة القبائل المتبربرة التى أخذت تعيث فساداً فى أملاك الإمبراطورية . وهنا لجأ جستنيان لبناء سلسلة من القلاع والحصون والخطوط الدفاعية على طول أطراف الإمبراطورية فى آسيا وأوروبا ، كما لجأ إلى استمالة هؤلاء المتبربرين بالأموال والهدايا ودفع الجزية لهم(٢) .

وإن كان بعض المؤرخين مثل فيشر يمتدحون هذه السياسة ويجدون فيها دليلا على سداد تفكير جستنيان وعلاجاً ناجحاً لمشكلة نقص الأموال(٣). إلا أنها فى رأيى قد ضاعفت من المشكلة ولم تكن بالعلاج الناجح السليم ، إذ أن تلك الإجراءات كلها قد اعتمدت أولا وأخيراً على بذل الأموال سواء كان ذلك أموالا سائلة للأعداء أوما تكلفه تشييد التحصينات من نفقات ، فى الوقت الذى كان جستنيان يعانى فيه من الضائقة المالية التى ألجأته إلى كل هذه الإجراءات . وهكذا أصبح جستنيان يدور فى حلقة مفرغة .

أضف إلى ذلك أن إنشاء هذه الحصون والقلاع أصبح عديم الجدوى ، فلم يتهيأ لها الجنود المدافعون عنها ، وقال المؤرخ المعاصر أجاثياس :

---

(1) Vasiliev : vol I, pp. 160 — 161.

(٢) فيشر : جزء ١ ، ص ٥٤ .

(٣) فيشر : جـ ١ ، ص ٥٤

« إن هذه القلاع والحصون كانت خالية خاوية لا يسمع فيها نباح كلب واحد »(١) .

على أنه من الجائر أن نحكم على جستنيان حكماً مبنياً على ما آلت إليه الأمور فى أواخر أيامه . خاصة وأن عوامل طبيعية بحتة ابتلى بها عصر جستنيان وكان لها أثرها فى سوء الموقف فى السنوات الأخيرة ، مثل الأوبئة وخاصة وباء الطاعون الذى انتشر فى الإمبراطورية فى سنة ٥٤٤ م وكانت بداية ظهوره بمصر . ثم انتقل إلى سورية فالقسطنطينية ، فالأناضول ثم ما بين النهرين . ثم انتقل إلى صقلية وإيطاليا . وقد تزايد فتك هذا الوباء بالسكان ، ويقال إنه أفنى ثلثهم . ونتيجة لذلك عم الخراب فى المدن والقرى وتوقف الزرع . فانتشرت المجاعات واضطربت الدولة بأسرها ، وقد زاد ذلك فى نقص الإيرادات . كما قضى هذا الوباء على كثير من الشباب الذين كان عليهم حمل السلاح والاضطلاع بعبء الدفاع عن الإمبراطورية ضد الأعداء المتربصين بها من كل جانب .

وقد تعددت الزلازل . وكان أخطرها الزلزال الذى حدث فى عام ٥٥١م وقد اهتز فيه الساحل السورى من أرواد حتى صور ، وعم الخراب وأصيبت مدينة بيروت بالضرر الأكبر من جراء هذا الزلزال ، ويقال إن البحر تعرض لحركات المد والجزر مما تسبب فى إغراق العديد من السفن وآلاف الناس ، ويصف المؤرخ أجاثياس ما أصاب بيروت بقوله : « بيروت زهرة فينيقية ذوت بعد هذه الزلزلة العظيمة وتقلص ظل جمالها ، ودكت أبنيتها الشامخة البديعة فتقوضت ، ولم يبق منها إلا ردم وخراب ،

---

(1) Agathias : Historiarum, ed Bonn, p. 333.

وهلك تحت أنقاضها جم غفير من الأهالى والأجانب . واختطف الموت نخبة الشباب الأشراف الذين كانوا قد قدموا إلى بيروت لدراسة الحقوق الرومانية فى مدرستها الشهيرة التى كانت فخراً وتاجاً على مفرقها تباهى بها مثيلاتها من المدن العظمى »(١) .

والخلاصة أن عهد جستنيان قد بدأ بداية طيبة بشرت بالآمال الزاهرة . ثم سار وهو مكلل بالأعمال الرائعة والجهود المخلصة من أجل النهوض بالإمبراطورية وتبوئها مكانة رفيعة سامية . ثم انتهى هذا العهد وهو محاط بجو من اللوم والسخط الشديدين . على إمبراطور هو فى الحقيقة من عمالقة التاريخ الأوروبى ، ويكفى وصف المؤرخ المعاصر أجاثياس الذى قال عن جستنيان إنه « أول من دل بأقواله وأفعاله دون جميع أباطرة الدولة الرومانية ، أنه امبراطور »(٢) .

ومن خلال عرضنا لعصر جستنيان وإنجازاته فى مختلف المجالات يمكننا أن نستخلص الحقائق التالية :

أولا :

إن جستنيان كان الإمبراطور الوحيد منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة فى عام ٤٧٦ م . وحتى نهاية عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى عام ١٤٥٣م . الذى قام بمحاولات عسكرية ضخمة وفق مخطط يهدف إلى استرجاع ممتلكات الإمبراطورية الرومانية القديمة . محققاً بذلك وبشكل عملى المبدأ الرومانى الهام الخاص بمسئولية الإمبراطور الرومانى

(1) Agathias - Historiarum, ed Bonn ,pp. 95 — 96.
(2) A gathias : p. 335.

الشرقى من الناحيتين السياسية والدينية تجاه الأقاليم الغربية التى استولى عليها البرابرة الجرمان .

ثانياً :

إنه ليس من الصواب القول إن جستنيان قد أعاد إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة لأنه — كما اتضح من خلال هذا البحث — لم يعيد هذه الإمبراطورية بحدودها التى كانت عليها فيما مضى ، وإنما الأصح القول بأنه استعاد بعض الأقاليم الرومانية الغربية ، ووسع بذلك حدود إمبراطوريته .

ثالثاً :

إن عهده يمثل آخر مرحلة من مراحل عظمة الإمبراطورية الرومانية اللاتينية ، وبعده أخذت الإمبراطورية الشرقية تصطبغ بالصبغة الهللينستية .

رابعاً :

إن سياسته الدينية الخاصة بإصراره على ممارسة الاستبداد القيصرى البابوى ، قد أوجدت سابقة من السيادة الدينية العليا للأباطرة البيزنطيين التاليين تمسكوا بها ، وظلوا يمارسونها حتى نهاية عهد الإمبراطورية البيزنطية ، وظل الإمبراطور البيزنطى حتى النهاية ، رأسا للكنيسة ، كما هو رأساً للدولة ، وبذلك أنقذ خلفاءه من التعرض لمواقف مماثلة لما حدث للأباطرة فى الغرب ، مثل هنرى الرابع وحادثة كانوسا ، وفردريك بربروسا ومقابلة البندقية(١) .

(١) تمت الحادثتان أثناء النزاع الذى أشتد بين أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية حول المبدأ الهام أيها أسمى وأيهما يجب أن تكون له السيادة العليا البابوية أم لإمبراطورية =

خامساً :

إن فتوحاته فى الغرب لم تنهار سريعاً ، ولكن يعود الفضل لهذه الفتوحات فى إعادة واستمرار النفوذ البيزنطى فى جنوب إيطاليا لعدة قرون تالية . وكانت فتوحاته هذه هى الأساس الذى استند عليه خلفاؤه الذين حاولوا أن يثبتوا نفوذهم فى الغرب . وأن فتوحاته فى شمال إفريقية استمرت قائمة . ولم تنهار إلا أمام طوفان الفتوحات الإسلامية . ولم تسقط إلا بعد سقوط الولايات الشرقية ذاتها . وأنه أعاد البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية مرة أخرى .

= وتتلخص حادثة كانوسا فى أنه بعد أن أصدر البابا جريجورى السابع قرار الحرمان ضد الإمبراطور هنرى الرابع سنة ١٠٧٦ ، وتخلى أمراء ألمانيا عن الإمبراطور . ذهب الأخير لمقابلة البابا ، الذى كان محتمياً بقلعة كانوسا ، ووقف الإمبراطور ثلاثة أيام وسط الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة فى وجهه ، حتى تعطف البابا وسمح له بالمثول بين يديه بشرط التسليم للبابوية بكل ما تطلبه دون قيد ، ثم دخل هنرى الرابع القلعة فى يناير ١٠٧٧ وما أن وجد نفسه أمام البابا حتى ارتمى على قدميه وانفجر باكياً وهو يقول : «اغفر لى أيها الأب المقدس» . فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطاً قاسية وزوده بالنصح والإرشاد . وقد تكرر هذا الموقف بعد مائة سنة بالضبط وفى عام ١١٧٧ بين الإمبراطور فردريك بربروسا والبابا اسكندر الثالث ، حين دخل فردريك مدينة البندقية وقابل البابا الذى كان محاطاً بجمع حافل من الكرادلة ، وارتمى الإمبراطور على قدمى البابا باكياً طالباً الصفح والغفران .

بشأن تفاصيل هذا النزاع أنظر :

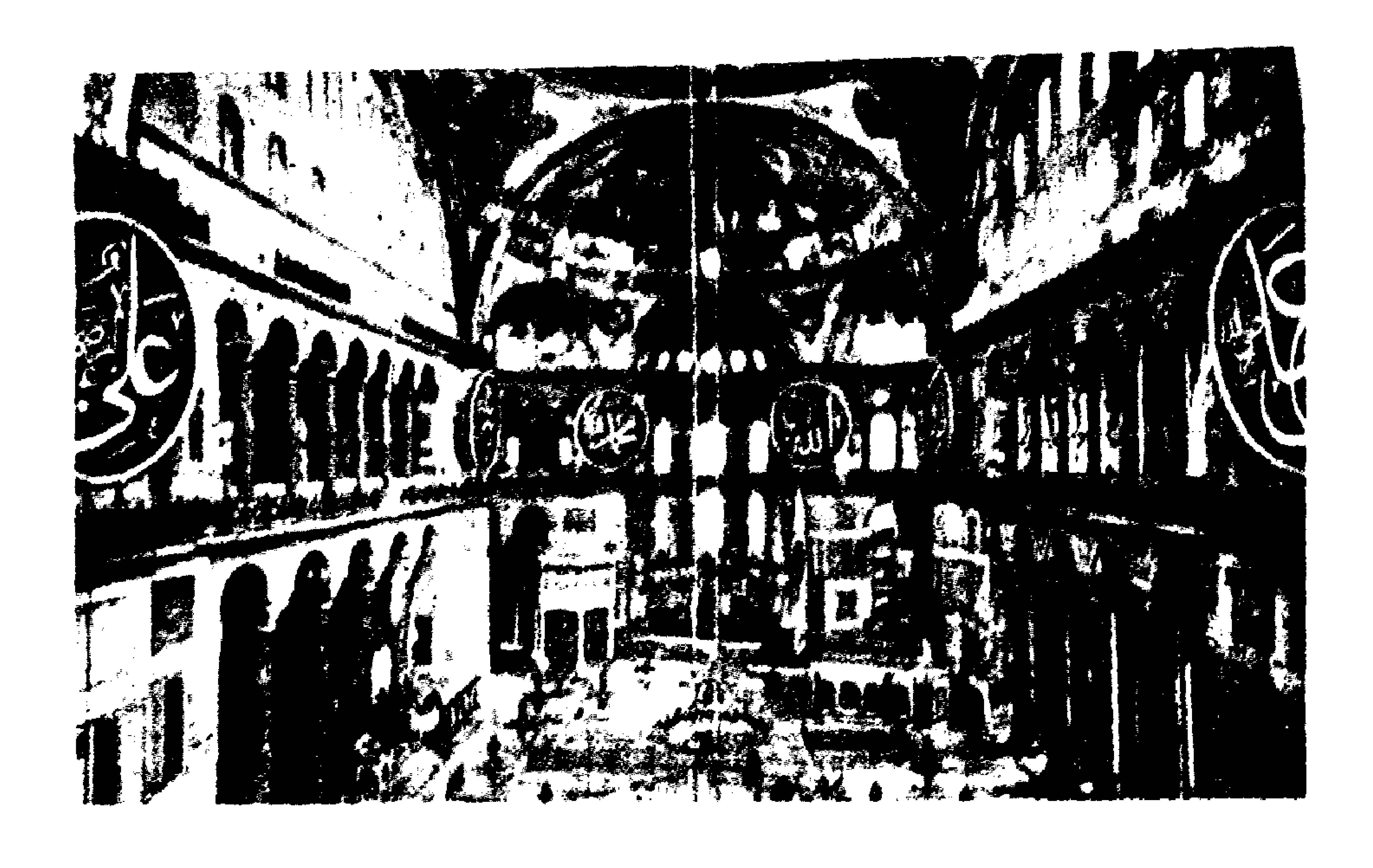
سعيد عاشور . تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٣٠٢ — ٣٦٣ .

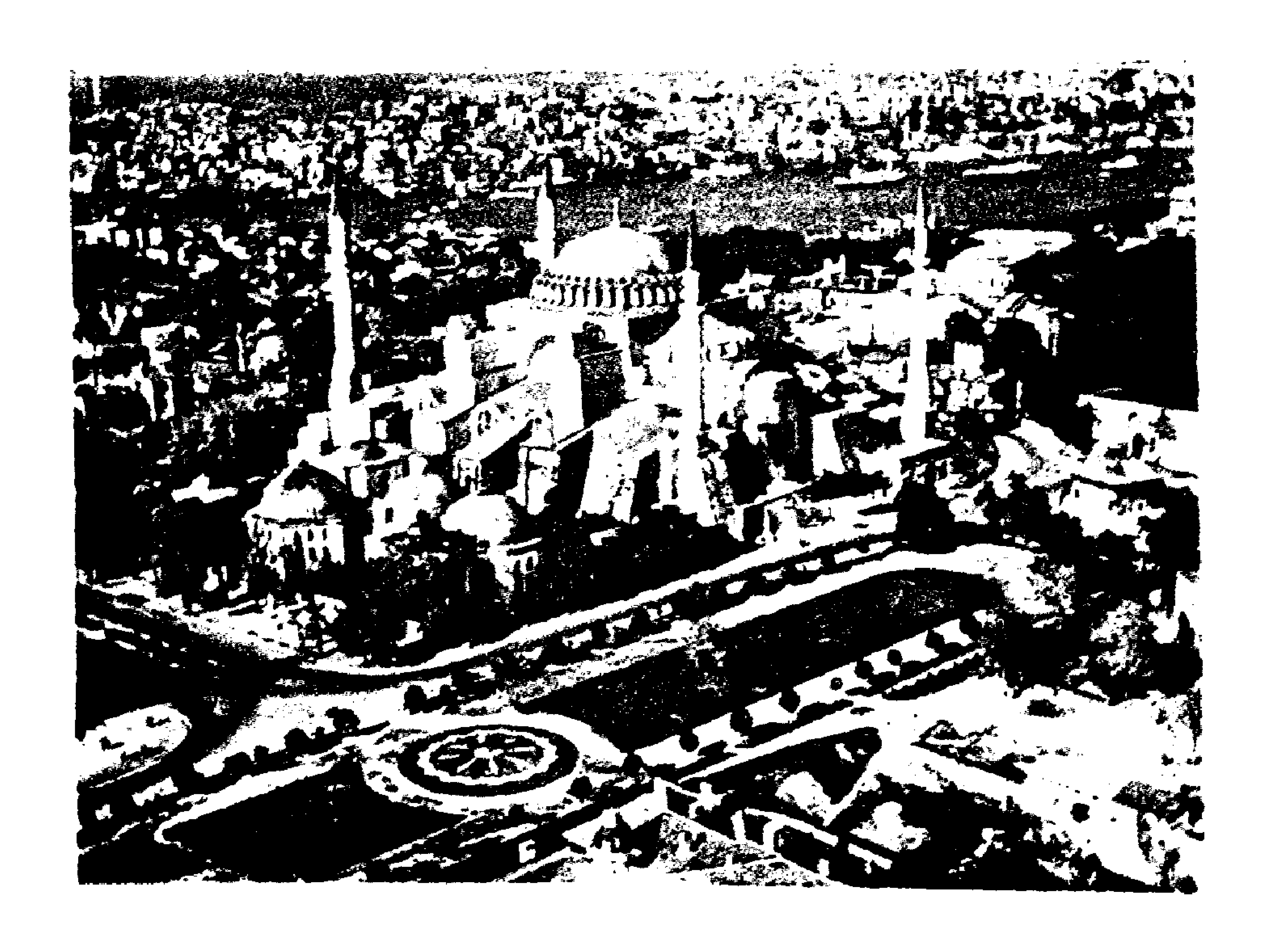
Tout : The Empire and the Papacy, pp. 122 — 390.

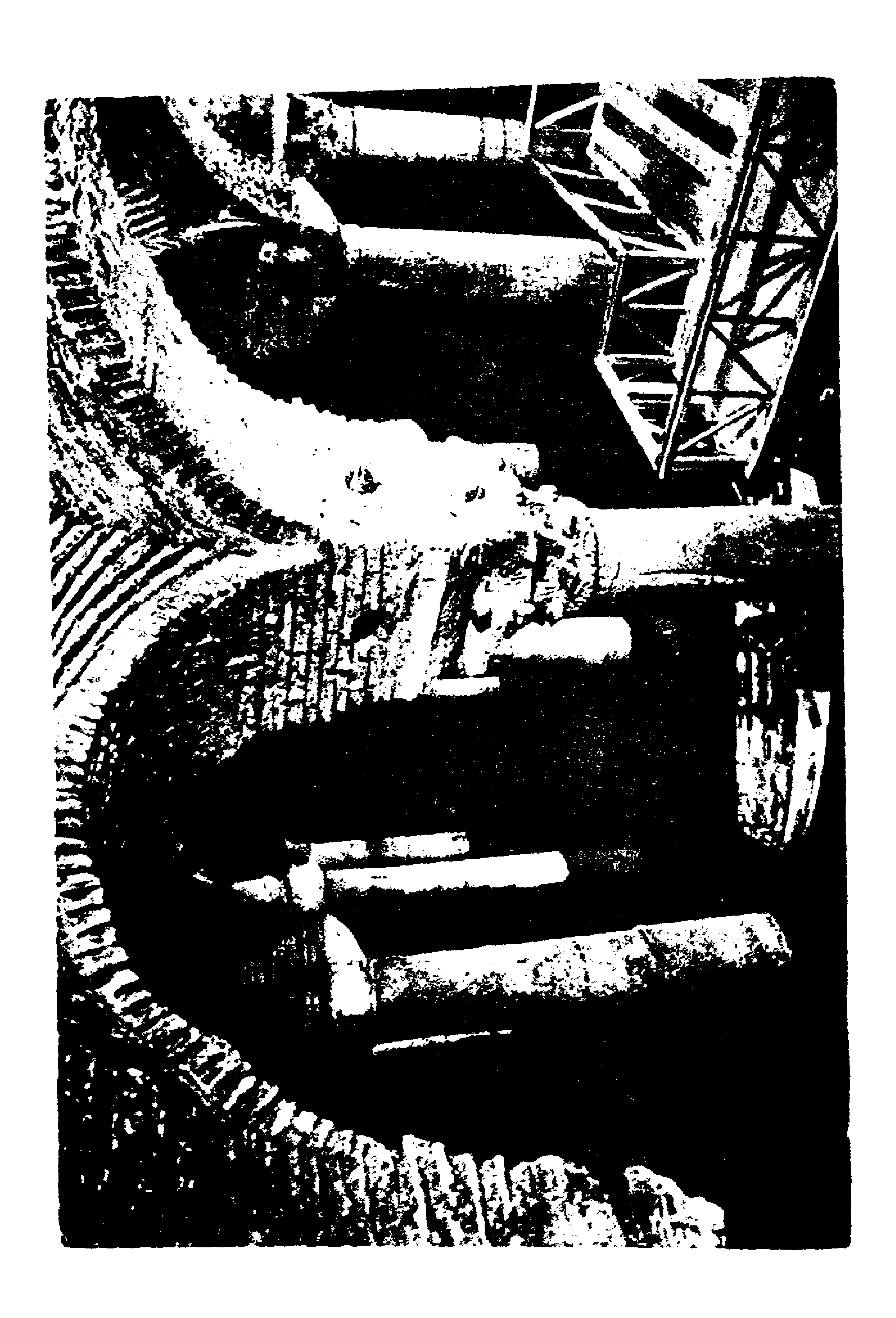


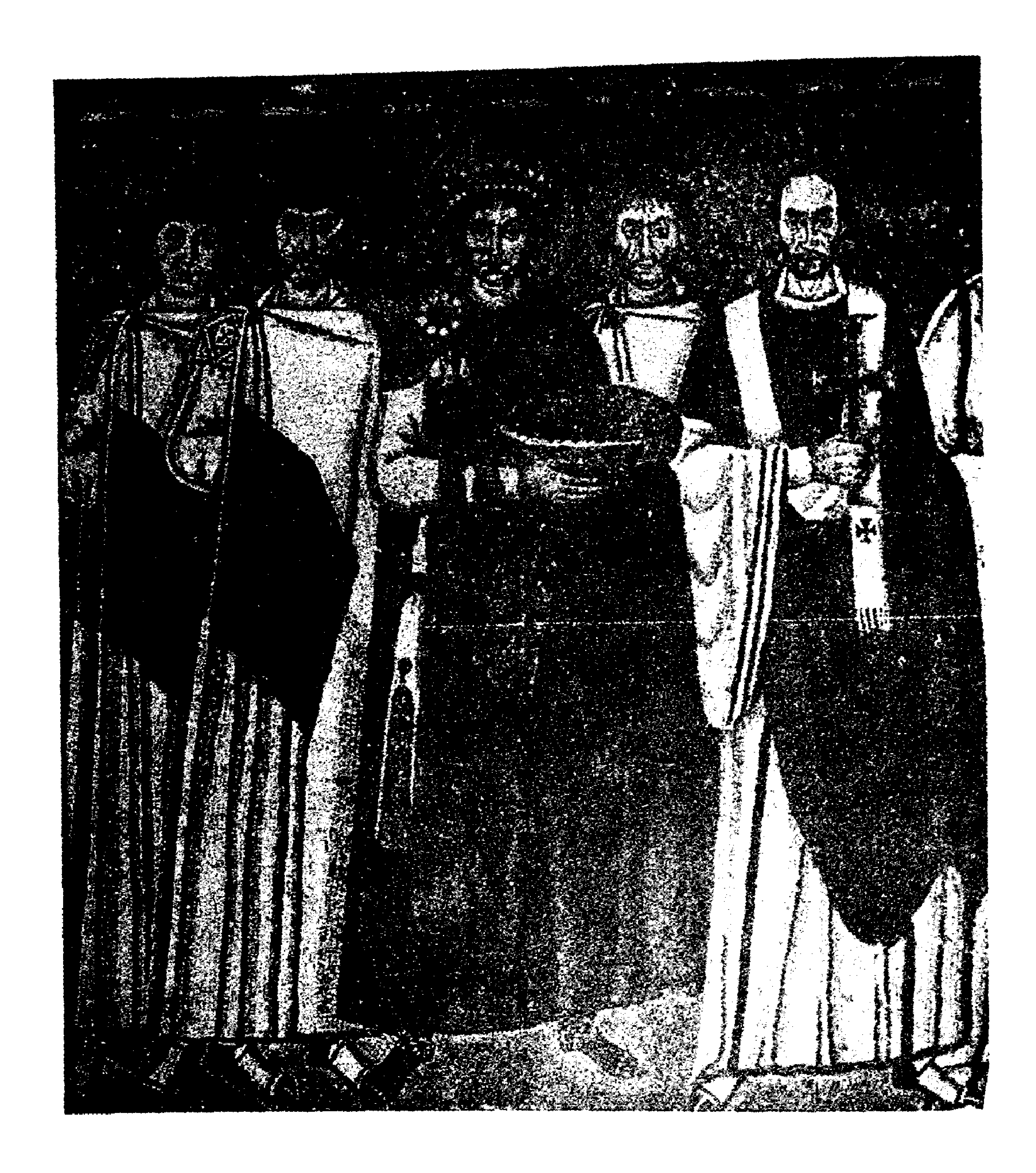




علی







الخـــرائط



إمبراطورية جستنيان
الأقاليم التي استردها جستنيان
الفرنجة
القوط الغربيون
كورسيكا
سردينيا
جزر البليار
قرطاجنة
صقلية
البحر الأدرياتيكي
البحر الأسود
طرابيزون
آسيا الصغرى
أنطاكية
نهر الفرات
دارا
قبرص
كريت
البحر الأبيض المتوسط
دمياط
الإسكندرية
مصر
بيت المقدس

المراجع

المراجع العربية

— أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودياناتهم وثقافتهم ه الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥ .

— السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (٣٢٣ — ١٠٨١) القاهرة، ١٩٦٠ .

— سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول.

— عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، الإسكندرية، ١٩٦٧ .

— نبيه عاقل : الإمبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ .

— أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى بدر ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

المراجع المعربه

— بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس محمود زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

— ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ، الإسكندرية ، ١٩٥٨ .

— فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر .

— موص : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، مراجعة د. السيد العرينى ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

المراجع غير العربيه

— Agathias : Historiarum, Niebuhr, Bonnae, MD X V

— Barker : gustinian and the later Roman Empire, London, 1966.

— Boad : Byzantine Imperialism, in Egypt. American Historical Review, XXXIV, 1928.

— Brehier : Vie et mort de Byzance, Paris, 1969.

— Bury, J.B. : A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

A History of the later Roman Empire, London, 1923

— Cambridge Medieval History, Vol, IV, ed. Bury, Cambridge, 1926.

— Cambridge Medieval History, Vol. IV, ed. Hussey. Cambridge. 1966 - 1967.

— Diehl (ch) : Byzance, Grandeur et Decadence, Paris, 1928.

— Di?hl et Marcais : Le monde oriental de 395 a 1081, Paris, 1936.

— Dolger, F. : Byzantine Literature C.M.H., vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Dvornik F. : Constantinople and Rome, C.M.H., vol. IV, Part I, ed. Hussey, Cambridge, 1966.

— Encyclopedia Britannica, William Benton, Publisher, U.S.A. 1968.

— Ensslin, W. The government and Administration of the Byzantine Empire, C.M.H. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Gilbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, London 1976.

— Diehl et Marcais : Le monde oriental de 395 a 1081, Paris 1936. -

— Dolger, F. : Byzantine Literature C.M.H., vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Dvornik F. : Constantinople and Rome, C.M.H., vol. IV, Part I, ed. Hussey, Cambridge. 1966.

— Encyclopedia Britannica, William Benton, Publisher, U.S.A. 1968.

— Ensslin, W. : The government and Aministration of the Byzantine Empire, C.M.H. vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Giblon : The Decline and Fall of the Roman Empire

— Grabar, A. : Byzantine Architecture and Art, C.M.H. vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Herman (E) : The Secular churches.
C.M.H. vol. IV, part II. ed. Hussey, Cambridge. 1967

— Hussey (J.) : The Byzantine World. I, London, 1955.

— Justinian : Novellae, ed K.E. Zachariae von Lingenthal, Jus graeco—romanum, Leipzig, 1856 — 84.

— Lot : The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages, London 1931.

— Moss (H.B.) : The Formation of the East Roman Empire (330—717), C.M.H. vol. IV, part I, ed Hussey, Cambridge, 1966.

— Moss : The Birth of the Middle Ages, Oxford, 1947.

— Obolensky,(D) : The Empire and its Northern Neighbours, C.M.H. vol, IV, part I, ed Hussey, Cambridge, 1966.

— Oman : The Dark Ages, London, 1908.

— Ostrogorsky(G): History of The Byzantine State, English Trans. by Hussey, Oxford, 1968.

— Procopius : Historia Arcana, ed, Haury, (1906) De bello Vandalico, English Trans. by Dewing.

— Rambaud,(A) : Etudes sur l'histoire Byzantine, Paris, 1912.

— Runciman, (S) : Byzantine Civilisation, Seventh Impression, Great Britain, 1975.

— Scheltema,(H.J): Byzantine Law, C.M.H. vol. IV, part II, ed Hussey, Cambridge, 1967.
— Tout. (T.F.) : The Empire and the Papacy, London, 1924.
— Vasiliev(A.A) : History of The Byzantine Empire (324—1453). vol. I, Wisconsin Press. U.S.A.
— Wellesz. (E) : Byzantine Music and Liturgy, C.M.H. vol. IV, part II, ed Hussey, Cambridge, 1967.

~~٢/١٠٣٠٦٨١/١٢٢١٣٦~~ ٢٠٠ قرش

الناشر : دار المعارف بالاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول
٢ ميدان التحرير (المنشية)